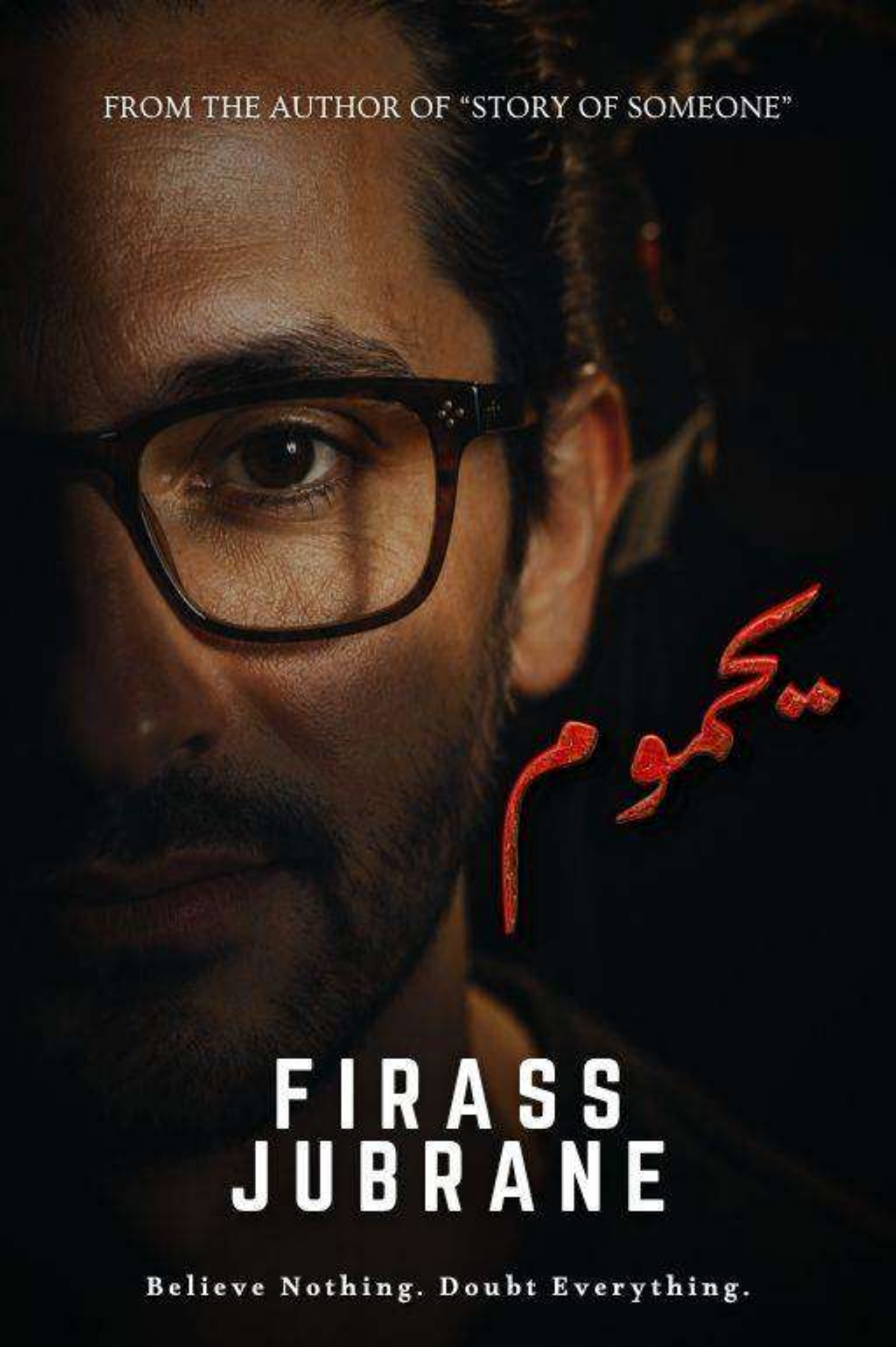
FROM THE AUTHOR OF "STORY OF SOMEONE"
يحموم
FIRASS
JUBRANE
Believe Nothing. Doubt Everything.

يحموم

Believe Nothing. Doubt Everything.

FIRASS JUBRANE

2026

All the events in this story are inspired by fiction and any resemblance to this events, personalities or names it is coincidence no more.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

إلى كل يقينٍ سقط ...

لأنه تجرأ على الاقتراب من الحقيقة.

هذا الكتاب لا يُهدى إلى أحد ...

بل يعثر على قارئه بنفسه.

جوبا

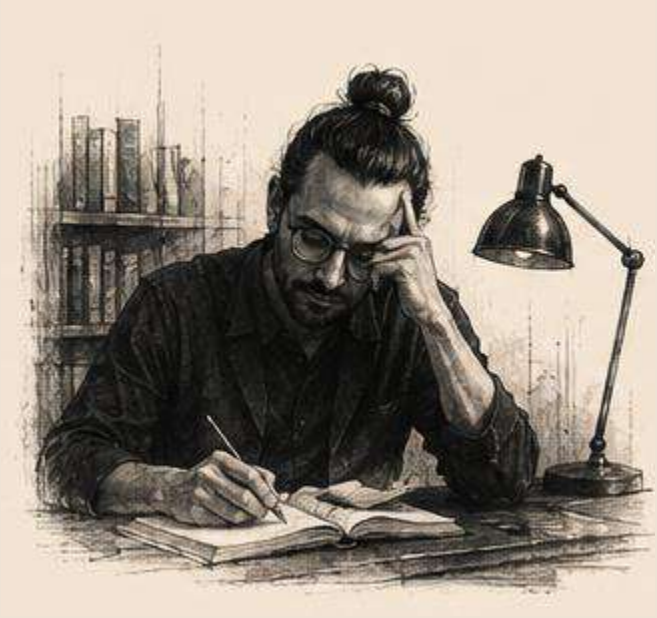

Not every haunting begins with a Ghost.

إِنَّ كَيْدَ الشَّيطانِ كَانَ ضَعِيفًا

(النساء ٧٦)

مقدمة

لطالما سئلت كقارئ وكاتب ذاك السؤال الذي لا يموت: **هل العلم والدين غريمان؟**

كنتُ أجيبُ بحِيادٍ متعجل: "لا، ليسا أعداء"، ثم أمضي. حتى كتبتُ هذه الرواية، فتبيّن لي أن السؤال نفسه كان مفخخاً منذ البداية.

العلم والدين ليسا خصمين يتصارعان في الحلبة ذاتها؛ إنهما لغتان مختلفتان تحاولان وصف الرعشة نفسها.. تلك التي تصيب الإنسان حين يقف أعزلَ تماماً في الظلام.

العلم يسأل عن الآلية: كيف يحدث هذا؟ ما الخلل في هذا الناقل العصبي؟ ما الميكانزم البارد للهلوسة؟ وكيف ينعكس الضوء في المرآة؟

والإيمان بمفهومه الأكثر إنسانية يسأل عن المعنى: لماذا أخاف أصلًا؟ لماذا أستشعر الذنب قبل ارتكاب الخطيئة؟ ولماذا حين أكون وحدي تماماً، يتملكني يقينٌ بأن هناك من يرصدني؟

المأساة تبدأ حين نقتسر أحدهما على لعب دور الآخر؛ نطلب من العلم طمأنينةً روحية فيعطينا تشخيصاً بارداً، ونطلب من الدين معادلة فيزيائية فيمنحنا صمتاً تأملياً.

بطل هذه الرواية، د. نوح البحري، سقط في هذا الفخ تحديداً. ظن أن الطب النفسي درعٌ حصين، وأن كل رؤيا مجرد ذاكرة منهكة، وكل خوفٍ خرافة. كان يملك إجابة جاهزة لكل شيء، باستثناء سؤالٍ واحد: لماذا ظل منطقُه ينهار كلما اختلى بنفسه؟

وهنا أصل إلى التحذير الذي كتبتُ هذه الرواية من أجله:

"نحن لا نحارب شياطين خارجية.. نحن نحارب انعكاسات مخاوفنا وخطايانا حين تكتسب أخيراً جسداً، وتجلس على الكرسي المقابل لنا."

"يحموم" ليس جنيّاً مسجوناً في كتب التراث، بل هو الاسم الذي أطلقناه على ذنبٍ رُفض الاعتراف به، وعلى ذكرى دفناها حية، وعلى جزءٍ منا مات لكننا ألمحنا له بالبقاء.. فظل معلقاً في البرزخ، بين أن يكون **نحن**، وأن يكون **شيئاً آخر**.

القرآن أسماه الجنّ، وعلم النفس دعاه اللاوعي، وهايدغر سمّاه الوجود نحو الموت، بينما تكتفي الجدات بتسميته القرين ..كلها مجرد أسماء مختلفة لشغل الكرسي الفارغ نفسه في الغرفة.

أنا لا أدعوك هنا للتسليم بالجن أو نفي وجوده، فهذا ليس شأني. أنا أدعوك لتجربةٍ أشد رعباً: **أن تؤمن للحظةٍ واحدة أنك لا تعرف نفسك كما تدّعي** .أن ما تسميه "أنا" ليس سوى قشرة رقيقة، وأن ثمة في الأعماق من يسكن، ويصغي، ويحفظ كل ما استموتَّ لتنساه.

إذا قرأت «**يحموم**» وشعرت بالخوف، فلا تسأل:

"هل يحموم حقيقي؟"

بل اسأل السؤال الذي ظل نوح يهرب منه طوال حياته:

"من هو الذي يخاف داخلي الآن؟"

فـراس جبـــــران

22-07-2026

تنبيه استهلاكي

لستُ طبيباً نفسياً... بل أكتب عن أولئك الذين يظنون أنهم بخير.

كان د. نوح البحري مقتنعاً، حتى اللحظة الأخيرة، بأنه في كامل قواه العقلية. وأنا لم أفعل شيئاً سوى أن تركته يتمسك بهذا الاعتقاد.

ما بين يديك ليس ملفاً طبياً، ولا محض خيال، بل محاولة صادقة لتدوين ما حدث... قبل أن يصبح من الصعب التمييز بين الحقيقة والوهم.

إذا شعرتَ، أثناء القراءة، أن المقعد المقابل لك لم يعد فارغاً...

فلا تلتفت.

عندها فقط، ستكون الرواية قد بدأت.

واصل القراءة... إن استطعت.

الكاتب

يحموم

Copyright © **2026** Frass Jubrane. All rights reserved.

الزائر

كم كنتُ أسخر من تلك العقول الهشّة التي تتزلزل وترتعب لمجرد سماع حكايات الجن والأرواح العابرة. وأذكر كيف كنت أقفُ مستنداً إلى إطار نافذتي المطلة على صخب الشارع، متسائلًا في سري: أيُعقل أن يخشى كائن عاقل أشباحاً خيالية لا وجود لها خارج جماجم واهميها؟

لم يكن هذا التعالي مجرد غرور، بل كان عقيدة مهنية؛ فأنا طبيب نفسي، والطب النفسي لا يعترف بالماورائيات صحيح أن الدليل التشخيصي

الأمريكي الخامس (DSM-5) خصص فصلًا كاملًا لما يسميه "المفاهيم الثقافية للضيق النفسي"، وذكر فيه صراحة المسّ والجن كقوالب تمنح بها بعض الثقافات معاناتها اسماً ومعنى، لكنه يبقى، من منظوري، توصيفاً أنثروبولوجياً للظاهرة، لا اعترافاً بوجودها الفعلي. .كنتُ أعتقد أن الإنسان لا يخاف المجهول، بل يخاف عجزه عن تفسيره؛ وما إن يجد تفسيراً - ولو كان خاطئاً - حتى ينام مطمئناً. لذلك لم تكن مهمتي معالجة المرضى بقدر ما كانت استبدال روايةٍ مرعبةٍ بأخرى أكثر قابلية للتصديق.

ففي مهنتنا، لدينا دائماً تفسير مادي بارد: كل هذيان ليس سوى خلل في ناقل عصبي تمرد على وظيفته، وكل رؤيا طيفية ليست إلا انعكاساً لذاكرة منهكة حفر فيها الإجهاد أخدوداً. كنت أرى الخوف خرافة، والجن ضرباً من الخيال المحض، فأنا رجل علم ولا أستطيع أن أسمح لنفسي بأن أُتَّهم بالتصوّف.. إلى أن عشتُ التجربة بنفسي. والمفارقة أنني لم أبدأ بالإيمان بما وراء الطبيعة، بل بدأتُ بالشك فيما أسميته طوال حياتي "الواقع". فالإيمان والخرافة ليسا نقيضين دائماً، بل قد يكونان ابنين للخوف نفسه.

ولستُ أزعم أنني استسلمتُ بسهولة؛ فمن يمضي عمراً كاملًا يزن الوجود بميزان الدليل، ويسجن العالم في قوالب الملاحظة والفرضية، لا يهدم يقينه في ليلة واحدة. لكن هذه شهادة حية على كيف انهار صرح عقلي، حجرًا حجرًا، ورغم كل مقاومتي الصارمة.

أنا د. نوح البحري. في الحادية والأربعين من عمري، حنّطتُ نفسي داخل جدران هذه العيادة، ولم تعد حياتي تعرف أفقاً سوى العمل. لم يتسع وقتي يوماً لفكرة الزواج والإرتباط؛ فقد ولدتُ يتيم الأب، حيث اختطفه الموت وأمي حبلى بي. وحين كبرتُ ورأيتُ تجاعيد يديها وقصّة كفاحها

المرير لأجلي، نذرتُ عمري لها وللمهنة. لكن، منذ عام تقريباً، انطفأت تلك المنارة؛ داهمتها ذبحة قلبية مباغتة في جوف الليل، ورحلت قبل أن تسعفني الدقائق لنقلها إلى المستشفى. ومنذ تلك الليلة الموحشة، لم يعد في بيتي سوى الصمت، وفي حياتي سوى هذا المقعد الجلدي وعيادتي.

في أحد الأيام الباهتة، زارتني حالة غير مدرجة في جدول المواعيد المزدحم. شاب في الأربعين من عمره أو ربما أصغر، يقاربني سناً وملامح، دخل بخطوات هادئة مريبة، وتمدد على كرسي المرضى دون إذن. حاولتُ الحفاظ على قناعي المهني، فابتسمتُ له برسمية، وقبل أن أفتح فمي بالسؤال المعتاد، بادرني بصوت خفيض مسترسل: لم آتِ إلى هنا لأتحدث كي أرتاح، كما يفعل كل أولئك المساكين الذين يطرقون بابك. أنا أتيتُ لأتحدث كي ترتاح أنت.

للمرة الأولى منذ سنوات، شعرتُ أنني لستُ الطبيب في هذه الغرفة. كان ثمة شيء خفي يعيد توزيع الأدوار دون أن يستأذن أحداً لاحقاً، حين حللتُ تلك اللحظة بعين مهنية باردة، أدركتُ أنها أقرب إلى ما نسميه في العيادة "التحويل المضاد المعكوس" (Reverse Countertransference) : حين يُخرج المريض معالجه من مقعده الآمن، ويجلسه هو على أريكة الاعتراف، دون أن يمنحه فرصة الرفض.. عقدتُ حاجبي، وحركتُ قلمي بين أصابعي: أنا؟

لم يجبني مباشرة، بل أغمض عينيه وبدأ يغوص في حكايته كأنه يقرأ من كتاب غير مرئي: منذ زمن ليس بالبعيد، كنتُ رجلًا آخر. في تلك الليلة الموعودة، رن هاتف المنزل ليخبروني أن زوجتي في المستشفى، وأنها تُصارع آلام المخاض لتضع مولودنا الأول. أتعرف ماذا يعني الانتظار؟

سبع سنوات عِجاف ونحن نتنقل بين الأطباء، نبكي في الخفاء، ونشتري ملابس الأطفال ثم نخبئها كأنه إثم. في تلك اللحظة، شعرتُ أن روحي عادت إلي. أدرتُ محرك سيارتي وانطلقتُ بها كالسهم المارق، ألتهم الطريق التهاما، أحاول مسابقة الثواني لأشهد ولادة ابني الذي صببتُ فيه كل شوق الأرض. لكنني.. لم أصل. بسبب سرعتي المجنونة، انحرفت السيارة. لا أذكر التفاصيل، لكن ما أعرفه هو أنني تعثرتُ بالموت.. لم يكن الموتُ نفسُه ما يرعبني، بل فكرةُ أنه يملك حقَّ المجيء في دقيقةٍ لم أستعدَّ لها بعد .دخلتُ في غيبوبة كاملة؛ ظلام دامس، وهدوء مطبق. كنتُ واعياً تماماً بوجودي، لكنني مسجون داخل جسدي؛ لا أرى، لا أسمع، ولا أقوى على تحريك إصبع واحد. كان إحساساً مرعباً بغرابته، حتى إنني لم أكن أشعر بألم الكسور والرضوض التي مزقت جسدي في الحادث، كنتُ مجرد فكرة معلقة في الفراغ. يومها فقط أدركت أن الإنسان لا يحتاج إلى جسده ليشعر بالخوف. الخوف نفسه ربما يكون العضو الوحيد الذي يبقى حياً بعد أن يتعطل كل شيء آخر.

سألتُه مهتماً، وقد بدأت القصة تشدّ انتباهي العلمي: وبعد ذلك؟

أجاب: لا أعلم كم من الوقت بقيتُ مُكبّلًا بالعجز على تلك الحال، ولا في أي بقعة من الأرض كنت، لكنني أذكر بدقّة لحظة استعادة حاسة السمع. بدأت الأصوات تتسلّل إلى قوقعتي، حتى استطعتُ تمييز صوتين يتحدثان معاً فوق رأسي مباشرة. قال الأول بنبرة متعبة: "مضى عليه زمن وهو أسير غيبوبة ممتدة، بلا هوية تدل عليه، ولا طارق يسأل عنه". فأجابه الثاني ببرود جليدي: "أغلق الملف الآن، ولننتظر إلى الغد، فإن لم يطرأ أي تغير على مؤشراته الحيوية نتصرف". عاد الأول يسأله بتردد: "أننهي حياته ونبيعه لمركز بيع الأعضاء البشرية كالعادة؟"

توقف الزائر عن الكلام للحظة، وابتلع ريقه بصعوبة، ثم تابع: لم أخشَ الموت بقدر ما خشيتُ شيئاً آخر؛ أن أتحول إلى شيء. إلى مادة خام، أو رقم في سجل، أو قطعة يمكن نقلها من مكان إلى آخر. أدركتُ أن أسوأ ما قد يحدث للإنسان ليس أن يموت، بل أن يفقد صفته كإنسان قبل موته.. حين سمعتُ ماقال، تجمّد الدم في عروقي. لكن جواب الثاني كان القشة التي قصمت روحي: "لا.. هذه المرّة في رأسي مخطط جديد، ومن سوء حظه الطالع سيكون هو حقل تجاربنا الأول. لنخرج من هنا الآن، وفي الطريق سأشرح لك الخطة، فقد تأخر الوقت."

استطرد وعيناه شاخصتان نحو السقف: بعد أن ابتعدت خطواتهما، بذلتُ قوة إعجازية حتى استطعتُ فتح عيني لأول مرة. سألتُ نفسي مراراً: أيُعقل أنني أهلوس؟ هل هذا مجرد كابوس عابر يراود وعياً مشوّهاً خارجاً من الغيبوبة؟ كان المكان مظلماً، بارداً برطوبة قاسية، لدرجة جعلتني أوقن أنني ممدد في ثلاجة موتى أو مشرحة مهجورة. حاولتُ رفع رأسي، حاولتُ أن أنبش بأظافري في السطح المعدني الذي يقع تحتي، فلم أستطع. لم أملك حنجرة تخرج صوتاً لأنادي أي عابر يساعدني. قضيتُ الليل بطوله على تلك الحال؛ لا أعلم إن كان ليلًا حقاً، لكنني خمنتُ ذلك من صمت المكان. لم أكن نائماً، ولم أكن حياً تماماً، بل كنتُ كتلة مضغوطة من الرعب والتوقعات السوداء.

قاطعته محاولًا إعادته إلى أرض الواقع العيادي: سردك متماسك جداً، لكنني ألاحظ أنك حتى الآن لم تُعرّفني بنفسك، ولم تخبرني باسمك؟

التفت هذا الزائر إليّ ببطء، ونظر في عيني مباشرة بنظرة خلت من أي تعبير بشري وقال: الطبيب النفسي يستمع ولا يسأل يا دكتور.. وعندما يحين الوقت لأخبرك من أنا.. سأفعل.

لم تكن كلماته وقحة، لكنها أصابتني بشيء يشبه الإهانة. للمرة الأولى شعرتُ أن أدواتي المهنية كلها تحولت إلى أثاث. وشعرتُ أيضاً بقشعريرة طفيفة داهمت أسفل ظهري، لكنني تظاهرت بالهدوء وقلت بلطف: تفضّل.. أكمِل.

فتابع: عاد صاحبا الصوتين بعد أن التهم القلق ما تبقى من صبري. وحين شعرتُ بوقع خطواتهما الثقيلة، أغمضتُ عينيّ فوراً، مدّعياً الموت خشية أن يقتلاني إن وجداني حيّاً. وقفا فوق رأسي، وسمعت أحدهما يقول:

" هـَه؟ .. ماذا قررنا؟ .. أنتصرّف؟"، فأجابه الآخر: "احقنه بالدواء، وأنا سأُجهز السيارة". فتحتُ عينيّ بغريزة البقاء النائمة، فرأيتُ وجهيهما بوضوح تحت الضوء الخافت، وعلموا أنني على قيد الحياة وأراهم. اقترب أحدهما مني، وحدق في عيني بنظرة استفزازية ساخرة، وقال: "أتعرف كم وفرتَ علينا من عناء وانتظار؟ لكننا في النهاية كنا محظوظين للغاية.. حمداً لله على سلامتك". ثم التفت إلى رفيقه وقال: "افعل كما اتفقنا، وأنا سأُخرج السيارة من الكراج".

تنفس الزائر بعمق، وتابع ونبرته تزداد حدّة: لم أكن قادراً على الحراك أو الكلام، كان فمي يابساً كالحجر يحترق طلباً لقطرة ماء. في ثوانٍ، أحسستُ ببرودة إبرة تخترق وريدي. فور تدفق السائل، شعرتُ كأن روحي فُصلت عن جسدي؛ أصبحتُ مجرد ضيف ثقيل في هيكل بشري لا يطيعني. فقدتُ الإحساس بأطرافي تماماً. كنتُ حرفياً كالتمثال؛ عينان مفتوحتان إلى أقصى حد، مليئتان برعب لا تسعه الكلمات، أُحدق في الرجل الذي يحقنني عاجزاً عن دفع الموت عن نفسي.

حملني بعد ذلك ووضعني فوق عربة معدنية صلبة وبدأ يجرني في الممرات المظلمة الباردة. حاولتُ بكل ذرة وعي متبقية أن أهز جسدي، أن أسقط نفسي عن العربة اللعينة، لكن الأوان كان قد فات. احتل المخدر خلايا دماغي بالكامل. وصلنا إلى الباب الخارجي، التقت عيناه بعيني، فانحنى فوق أذني وهمس بصوت أشبه بفحيح الأفاعي: "لا تخف.. هناك لن تشعر بشيء". غمزني بطريقة مستفزة وضحك بصوت عالٍ، ثم دفع العربة إلى كابينة السيارة. كانت سيارة سوداء ضخمة، أشبه بسيارات نقل الموتى. ركب رفيقه بجانبه وانطلقا بجنون. كانا يدخنان ويتبادلان النكات السمجة، وأنا أتأرجح بين الوعي والعدم. لكن، ما استنتجته من بين ضحكاتهما، أن أحدهما سأل: "لماذا هو بالذات من سنسلّمه؟"، فأجابه الآخر بيقين: "الوسيط هو من اختاره.. وليس بوسعنا الرفض". كان الطريق طويلًا وممتداً كأنه بلا نهاية، وحينها فقط استسلمتُ للأمر الواقع، ولم أعد أتمنى سوى أن يبتلعني الإغماء الكلي فلا أعود أشعر بشيء.

سكت الزائر فجأة. انقطع صوته كما ينقطع خيط رفيع. خيّم على العيادة صمت ثقيل لدرجة أنني سمعتُ تكّات الساعة الجدارية كأنها مطرقة. وعلى الرغم من الفضول القاتل الذي نهش عقلي لأعرف بقية القصّة وكيف نجا، بقيتُ منتظراً احتراماً لطقوس الجلسة.

لكنه لم يتابع. نهض بآلية غريبة؛ لم أسمع لملابسه قعقعة، ولم أرَ في جسده التواءة النهوض البشرية المعصوبة بالعضلات، بل انتصب واقفاً كدمية سُحبت بخيط غير مرئي من سقف الغرفة.

ومن دون أن يلتفت إليّ، أو يمنح عيني فرصة التقاط بريق الوعي في عينيه، تحرّك نحو الباب بخطواته الهادئة ذاتها. عند عبوره، شعرتُ بنفحة

هواء غريبة تجاوزت جسدي. انفتح الباب وأُغلق خلفه دون صوت، تاركاً إياي مع المقعد الجلدي الفارغ، وجلسة لم يُدفع أجرها، وسطوع باهت لصفحة السجل البيضاء التي لم يخطّ فيها حبراً يدل على هويته.

تركتُه يمضي ولم أحاول استيقافه. كنتُ واثقاً، بناءً على سوداوية ما رواه، أن في جعبته بقية، وأنه لا بدّ عائد. لكنني، ولسببٍ عجزتُ عن تفسيره فسيولوجياً، التفتُّ ببطء نحو المرآة الكبيرة المعلقة خلف مكتبي، وأخذتُ أتفرّس في ملامح وجهي بدقة مشدوهة.. كأنني أتأكد من أن ملامحي أنا، ما زالت في مكانها ولم يسرقها معه.

حتى ذاك اليوم، كنتُ أظن أن الهوية محفوظة داخل بطاقة الأحوال الشخصية، أو في صورة جواز السفر، أو في انعكاس المرآة. لكنني لم أكن أعلم أن الإنسان قد يفقد نفسه كاملة، بينما يظل وجهه كما هو تماماً.

السطح

أغلقتُ باب عيادتي وعدتُ إلى المنزل كالمعتاد، غير أن صدى صوت ذلك الرجل وتفاصيل حكايته الغريبة ظلوا عالقين في دهاليز عقلي، يتجولون في رأسي كالأشباح ولا يمنحونني فكاكاً. كنتُ في العادة، وفور خروجي من عيادتي، أخلع عن كاهلي كل الحكايات المأساوية والقصص المشوّهة التي أسمعها من المرضى، أتركها خلفي على أعتاب المكتب وأعود رجلًا عادياً. لكن هذه المرّة، أخفقتُ في النسيان.

ومع أنني كنتُ في كامل نشاطي الذهني والبدني طوال اليوم، إلا أن إرهاقاً شديداً ومباغتاً تملّكني وحطّ على مفاصلي بمجرد أن وطئت قدمي عتبة البيت. سرى في جسدي وهنٌ غريب كأنه سُمٌّ بطيء. تمددتُ على سريري مثقلًا، وقلتُ لنفسي إنني سأستريح لبرهة خاطفة، ثم أنهض لُأعدّ أي طعام يسد رمقي، فأنا لم أذق زاداً طوال النهار.

بدأت جفوني تتراخى وتطبق من تلقاء نفسها، بثقلٍ مريب كأنني تجرعتُ جرعة كيميائية منوّمة، مع أنني لا أعتاد النوم في ساعة كهذه من النهار أبداً. وفي تلك الفجوة بين الوعي والمنام، عادت قصّة هذا الزائر لتنسج نفسها في مخيلتي بتفاصيلها الباردة كلها، لكن المخرج الخفي لكوابيسي استبدل الممثلين؛ فبدلًا من أن يكون ذلك الشاب هو الفريسة الممددة على طليعة مسلخهم، كنتُ أنا.

استيقظتُ فجأة على إثر شهقة ذعر من كابوس قاسٍ، ووجدتُ جسدي غارقاً في عرقي كأنه خارج من مستنقع. نظرتُ حولي مذهولًا، فلم أكن فوق سريري؛ بل كنتُ مستلقياً على الأرض الباردة، في الممر الضيق بجانب باب غرفة والديّ - رحمهما الله - وكانت عتمة الليل قد حلّت، والكهرباء في المنزل مقطوعة تماماً.

نهضتُ عن الأرض وجسدي كأنه تعرض للتحطيم أو الضرب المبرح، ولم أدرِ إن كان هذا الألم ناتجاً عن صلابة البلاط، أم عن انعكاس الرعب الذي عشته في منامي. تلمستُ رأسي متسائلًا بذهول طبيب: كيف وصلتُ إلى الأرض هنا؟ أنا لم أمشِ أثناء نومي طوال حياتي!

كطبيب نفسي، أعرف جيداً اضطراب "السرنمة" أو السير الفصامي أثناء النوم (Somnambulism) ، وأعلم أنه يصيب العقول المجهدة، لكن وما

أقلقني أكثر من السرنمة نفسها هو أنني لم أشعر بأي "شلل نومي" (Sleep Paralysis) مصاحب، تلك الحالة التي يستيقظ فيها الوعي بينما يبقى الجسد مشلولًا بفعل ضمور عضلي طبيعي أثناء نوم حركة العين السريعة؛ فما حدث معي كان معاكساً تماماً: جسدٌ يتحرك ويسير، بينما وعيي هو الغائب المشلول. هل يعقل أن أكون قد أصبت به فجأة في الحادية والأربعين؟

مشيتُ في الظلام مستهدياً بخبرتي بجدران البيت؛ كان الظلام متجسداً في كل ركن، ثقيلًا يربض فوق صدري ويستقر على كاهلي كذنوبٍ قديمة لا تمحى. حتى وصلتُ إلى المطبخ، فتحتُ باب الثلاجة التي انبعث منها ضوءٌ باهت يعمل على بطارية الطوارئ، فسحبتُ زجاجة ماء بارد وتجرعتُها دفعة واحدة. وعلى الرغم من جوعي المفترض، لم أعر الطعام أدنى اهتمام؛ إذ كانت تعلو حلقي مرارةٌ لاذعة، وطعمٌ معدنيٌّ غريب جعلني أكره رائحته وشكله.

أعدتُ الزجاجة إلى مكانها، وأشعلتُ سيجارة أضاء وهجها الأحمر وجهي لثوانٍ، وقادتني قدماي بآلية مريبة نحو المكان نفسه الذي استيقظتُ فيه: باب غرفة نوم أمي.

وقفتُ هناك والسيجارة تشتعل بين أصابعي، ولم أكن أعرف ما الرابط الخفي، ولا ما الذي كان يشدني طوال الوقت إلى تلك البقعة بالتحديد. لعلّه الحنين الجارف والشوق إلى أمي التي لم يمر على رحيلها عام واحد. نحن البشر نتعامل مع من نحبهم وكأنهم كائنات خالدة لن تغيب أبداً، ولهذا تكون الصدمة مميتة ومتزلزلة حين يرحلون فجأة ويتركوننا وحدنا في العراء.

كنتُ أتحدث عن أمي بالطبع، لا عن أبي؛ فأنا لا أعرفه، ولأنه توفي وأمي حبلى بي، لم يتسنَّ لقلبي أن يشتاق إليه يوماً، فأنا لا أملك له في ذاكرتي صوتاً ولا ملامح وجه. لكن أمي كانت دنيتي بأسرها، وبرحيلها صارت حياتي مجرد تجويف فارغ بارد.

وقفتُ أمام الباب المغلق، وبدأت أقرأ سورة الفاتحة على روحها الطاهرة لعل نفسي تهدأ. وبينما كانت الآيات تنساب من فمي، لمحتُ أمراً جعل قلبي يقفز؛ ثمة خيط رفيع من الضوء يتسلل من تحت الباب، ضوء قادم من داخل الغرفة المغلقة، مع أنني متأكد أن الكهرباء مقطوعة عن الشقة بأكملها! قطعتُ قراءتي هاتفاً برعب: «صدق الله العظيم»، وفتحتُ الباب على عجل.

تراجعتُ خطوة إلى الوراء وصعقة الذهول تضربني. ماذا جرى هنا؟ الغرفة كانت مقلوبة رأساً على عقب! الخزائن مفتوحة، الملابس ملقاة على الأرض، والكتب مبعثرة بشكل فوضوي مرعب، مع أنني أهتم بهذه الغرفة تحديداً، وأرتبها وأنظفها وأبخرها باستمرار تكريماً لذكراها!

خطوتُ بحذر وسط الفوضى، وتوجهتُ نحو السرير حيث لمحتُ ورقة بيضاء مطوية بعناية تتوسط الفراش. حملتها بآلية، وفتحتها تحت الضوء الغامض المصدر الذي كان يملأ الغرفة، فكانت الصدمة التي جمدت الدماء في عروقي: إنها شهادة وفاة أبي الأصلية. كانت هذه هي المرّة الأولى في حياتي التي أرى فيها هذه الوثيقة، وبدا الأمر وكأن يداً خفية قد نبشتها من دهاليز الماضي وتركتها لي هنا عمدًا لأراها.

وبينما أنا ألتفتُ مذهولًا محاولًا فهم ما يجري، وقع نظري على المرآة الكبيرة المثبتة على الحائط. تجمدتُ في مكاني؛ رأيتُ انعكاسي، لكنه لم

يكن أنا! كانت عيناي حمراوين محتقنتين بالدم كأنني تعاطيتُ جرعة قاتلة من المخدرات، وشفتيَّ زرقاوين داكنتين، وبشرتي قد فُرغت تماماً من لونها الطبيعي واكتست ببياض شاحب بارد.. تماماً كالموتى!

فزعتُ وتراجعتُ برعب، ابتعدتُ عن المرآة وواريت وجهي بكلتا يديَّ كي أحجب ذلك الانعكاس الجنائزي عن نظري. وبمجرد أن أغلقتُ عيني، شق صمت الغرفة صوتٌ أعرفه جيداً.. صوت أمي! كانت تنادي أبي بنبرة عتاب حزينة ولوم باهٍ. في تلك اللحظة، لم أشعر بارتعاش جسدي الفطري فحسب، بل شعرتُ بصدمة كهربائية حقيقية تسري في عمودي الفقري وتهز كياني، وبدأت أطرافي تتشنج بعنف.

لم أعد أتحمل هذا الجنون. ركضتُ خارج الغرفة، بل اندفعتُ خارج الشقة بأكملها، ونزلتُ درجات السلم راكضاً إلى الطابق السفلي لأطرق باب الجيران بحثاً عن أي حضور بشري ينقذني من عقلي. رفعتُ يدي لأضغط على الجرس، لكنني توقفتُ في اللحظة الأخيرة حين انتبهتُ إلى ساعتي؛ الوقت متأخر جداً من الليل. تراجعتُ فجأة؛ كيف سأشرح لهم ما رأيت؟ الناس في مجتمعنا يعتبرون الطبيب النفسي فاقداً لنصف عقله أصلًا ويتصيدون له الهفوات، وهذه، للمفارقة، معضلة موثقة في أدبيات مهنتنا؛ فالأطباء النفسيون هم من أقل الفئات طلباً للعلاج حين يمرضون هم أنفسهم، إذ تحول وصمة العار المهنية دون اعترافهم بضعفهم أمام زملائهم، حتى وهم يعِظون مرضاهم يومياً بأن طلب المساعدة قوة لا عجز.، فماذا لو أخبرتهم أنني أرى أشباحاً وسماع أصواتاً في بيتي المظلم؟

انسحبتُ بهدوء مطأطأ الرأس، وعدتُ أدراجي إلى شقتي.

وقفتُ في وسط الصالون، وأخرجتُ هاتفي المحمول، وبدأتُ أضغط على شاشته دون تركيز، أتنقّل بين التطبيقات بشكل عشوائي، فقط لأشغل عقلي وعيني عن التفكير فيما حدث خلف ذلك الباب. وبينما أنا واقف في هذا السكون المطبق، تناهى إلى سمعي صوت خطوات ثقيلة تصعد الدرج. حاولتُ تهدئة روعي؛ فالبناية مشتركة وهذا أمر طبيعي، لكن الأصوات بدأت تقترب وتتوقف تماماً عند باب شقتي.

تسمّرتُ في مكاني. كان ظل الشخص واضحاً كشبح مستطيل يتمدد من تحت عقب الباب مستفيداً من ضوء الممر الخارجي. انتظر الطارق المجهول لثوانٍ، ثم تحرك وابتعد، ثم عاد واقترب من جديد، مكرراً هذه الحركة المريبة ذهاباً وإياباً.

هنا بلغ القلق مني ذروته. اقتربتُ بهدوء وعلى أطراف أصابعي من الباب، ولصقتُ عيني بالعين السحرية. لم يكن هناك أحد! الممر فارغ تماماً! لكن الصدمة كانت أنني حين نظرتُ لأسفل الباب، كان الظل البشري ما يزال قابعاً هناك، يتحرك ويتموج رغم خلو الممر!

انفجرت غريزة الدفاع داخلي، مددتُ يدي المرتجفة ببطء، وفتحتُ قفل الباب وقمت بمواربته قليلًا، وأطللتُ برأسي إلى الخارج والذعر ينهش كل إنش في جسدي. التفتُّ يميناً ويساراً، ولمحتُ طيفاً بشرياً يرتدي السواد، يركض بسرعة خارقة صاعداً درجات السلم نحو الطابق العلوي المؤدي إلى السطح.

اشتعلت في رأسي شرارة الغضب لتغطي على الخوف: "هذا لص بالتأكيد، ولن أتركه يفر، إن لم يسرقني أنا فقد يستبيح حرمة شقة أخرى"، وكنتُ

شبه موقن في تلك اللحظة أن هذا الدخيل هو من عاث خراباً في غرفة والديّ.

لحقتُ به بنوبة أدرينالين مجنونة، صاعداً الدرجات وراءه وهو يهرب مني، حتى وصلنا إلى سطح المبنى. كان السطح مكاناً قاحلًا ومليئاً بالعقبات؛ خزانات مياه بلاستيكية ضخمة، ألواح طاقة شمسية تعكس ضوء النجوم الباهت، أطباق أقمار صناعية، وركام من الخردة القديمة، وكانت الدنيا مظلمة لدرجة تحجب الرؤية تماماً.

استمر هذا الكائن الغريب في المناورة والهروب بين الخردة وأنا أطارده بأنفاس مقطوعة، حتى استطعتُ أخيراً حصاره في زاوية ميتة عند حافة السطح. صرختُ فيه بصوت متهدج: قف في مكانك! إلى أين تريد الهرب بعد؟

التفت نحوي ببطء، ونظر إليّ. كان يرتدي ثياباً سوداء داكنة ويسدل على وجهه شالًا أسود حالك أخفى ملامحه بالكامل، ولم يظهر منه سوى عينيه اللتين كنتُ ألمحهما بالكاد في العتمة، وكان الخوف يبدو واضحاً في بريقهما.

رؤية خوفه منحتني جرعة من القوة والشجاعة، فخطوتُ نحوه قائلًا بنبرة حادة وصارمة: من أنت؟ وماذا تريد مني؟ ماذا كنت تفعل واقفاً كالشبح أمام باب شقتي؟ جئت لتسرق.. أليس كذلك؟

ظل واقفاً، يرتجف صامتاً ويرفض النطق بكلمة واحدة. عدتُ وصرختُ فيه بغضب أشد وأنا أخرج هاتفي: تكلم وانتهِ من هذا الأمر، وإلا سأقسِم لك أنني سأتصل بالشرطة لتتولى إخراجك من هنا فوراً!

لم أستطع إتمام تهديدي؛ إذ تجمدت الكلمات في حنجرتي وتحولت إلى غصة رعب. بدأ صوت غريب، أشبه بجرجرة حديد على أسفلت، يخرج من أعماق هذا الشخص. وعيناه.. عيناه بدأتا تتحولان وتتسعان بشكل غريب ومرعب، تلمعان ببريق حيواني لا يمكن لوصف بشري أن يحيط به. انقشع الخوف الذي كان يبدو عليه فجأة، وكأنه كان قناعاً، وانتقل ذلك الرعب بكامل ثقله إليّ.

بدأ يتقدم نحوي بخطوات وئيدة مهددة. صرتُ أتراجع إلى الوراء بغريزة مرعوبة، وقلتُ له وصوتي ينكسر ويرتجف كأوراق الشجر في العاصفة: ما هذا؟ كيف تحولت هكذا؟ قل لي من أنت؟ من المستحيل أن يكون هذا الصوت وهاتان العينان لإنسان طبيعي! أأنت من دخل بيتي وعبث بغرفة أمي وأنا نائم؟ أجبني! لعلمك.. أنا لستُ خائفاً منك، ولن أتركك إن حاولت إيذائي!

انفجر الضبع الأسود بضحكة مجنونة، جلجلت في أرجاء السطح وارتدت في مسامعي بقوة سببت لي ألماً فيزيائياً حاداً، فرفعتُ يديَّ غريزياً لأغطي أذنيَّ من شدة الوجع. تراجع الكائن خطوات سريعة إلى الوراء حتى وصل إلى الحافة الشاهقة للسطح، اعتلى السور الإسمنتي القصير، والتفت إليّ ليقول بصوت معدني مشوه لا يشبه نبرة أصوات البشر: "سنلتقي قريباً"، ثم.. ألقى بنفسه إلى الهاوية.

ركضتُ فوراً كالمجنون، وانحنيتُ على حافة السطح أنظر إلى الأسفل والظلام يبتلع الشارع. الصدمة كانت قاتلة؛ لم يكن هناك أي أثر لجسد ساقط! الشارع هادئ، والقلة القليلة من المارة والسيارات في الأسفل كانوا يسيرون بشكل طبيعي تماماً، ولم يبدُ على أحد منهم أنه سمع صوتاً

أو رأى جثة ترتطم بالأرض، وكأن لا أحد ألقى بنفسه من هذا الارتفاع الشاهق قبل ثوانٍ.

نزلتُ من السطح راكضاً، لكنني لم أدخل شقتي؛ بل تابعتُ طريقي ناصباً قامتي نحو الشارع في الأسفل. وقفتُ في بقعة السقوط المفترضة، أبحث بهستيريا عن قطرة دم، عن ثوب ممزق، أو أي أثر للرجل الذي انتحر أمامي.

لم أجد شيئاً سوى الأسفلت الجاف البارد. ومن شدة خوفي وهيئتي المبعثرة وأنفاسي المتلاحقة، بدأ مظهري يلفت أنظار المارة في الشارع ويتوجسون مني ريبة، فانسحبتُ بسرعة وصعدتُ السلم عائداً إلى شقتي.

وللحظات، وأنا أتسلق درجات السلم، بدأتُ أمارس مهنتي على نفسي؛ أبحث عن تبرير علمي عقلاني يحميني من الجنون. قلتُ لنفسي إن كل ما أراه وما يحدث معي ليس سوى هلاوس بصرية وسمعية، نتيجة ضغط نفسي حاد تراكم في عقلي الباطن بسبب الحالات السوداوية التي أستقبلها في العيادة يومياً فالهلاوس التي تحدث عند حافة اليقظة (Hypnopompic Hallucinations) معروفة طبياً بواقعيتها الخادعة؛ إذ يبقى جزء من الدماغ لا يزال يحلم بينما يظن الوعي أنه استيقظ بالكامل، فتتماهى صورة الحلم مع الغرفة الحقيقية بلا خيط فاصل بينهما.. بدأتُ أقنع نفسي بهذه الفكرة الطبية، متشبثاً بها كقشة إنقاذ كي يهدأ روعي ولا أنزلق إلى ظلمات الفصام والجنون المطلق.

وصلتُ إلى طابقي، وتوقفتُ مذهولًا. الباب الذي تذكرتُ جيداً أنني تركته مغلقاً ورائي، وجدته الآن مشرعاً على مصراعيه! ولم يكن هذا كل شيء؛

إذ كانت ثمة مادة سائلة، ماءٌ بنيّ لزج تشوبُه حمرةُ الصدأ وتفوحُ منه رائحةٌ كريهة، يتدفق بغزارةٍ عند مدخل الشقة كأنه ينبع من الداخل.

بجسد مشلول خطوتُ إلى الداخل، وحين عبرتُ الردهة، لمحتُ في مرآة الصالون الكبيرة انعكاساً جعل قلبي يتوقف عن النبض. كان الانعكاس للشخص نفسه.. الكائن الأسود ذو العيون المشوهة الذي ألقى بنفسه من السطح قبل دقائق، كان يقف خلفي تماماً في المرآة. ومع مرور ثوانٍ شلّت قدرتي على الحركة وسط هذا الرعب، بدأت التشنجات العنيفة تضرب أطرافي مجدداً، وصارت الدنيا من حولي تظلم وتضيق، حتى انطفأ الوعي تماماً، وهويتُ في قاع سحيق من العدم.

الجلسة الثانية

استغرقتُ وقتاً طويلًا لأفتح عينيّ؛ كانت الأهداب ثقيلة كأنما خُتمت برصاص، والوعي يعود إليّ مجزأً عبر ومضات متقطعة. حين انجلت الغشاوة أخيراً، جلتُ بنظري في أرجاء الغرفة، فاستقبلتني خيوط شمس دافئة تتسلل عبر النافذة بنعومة لا تليق بكوابيس البارحة. كان البيت غارقاً في سكون تام، سكون مطبق ومشبوه، لا أثر يشي بتلك الفوضى العارمة التي عصفت بأركانه في الليلة الماضية.

نهضتُ وجسدي متخشب، وتوجهتُ برعب مبطن، تسبقني دقات قلبي المتسارعة، نحو ردهة المنزل. هناك وقفتُ مذهولًا؛ كان مدخل الباب نظيفاً، جافاً، ومصقولًا بعناية. اختفت تلك المادة اللزجة الشبيهة بالصدأ كأنها تبخرت في العدم، وعادت الآنية والأثاث والكتب المبعثرة إلى مواضعها الهندسية الدقيقة كأن يداً خفية أعادت ترتيب الوجود في غيابي.

خطوتُ خطوة أخرى نحو العمق، نحو البقعة التي شهدت ذروة الانتهاك.. حتى الفوضى الشنيعة التي كانت قد استباحت غرفة أمي، تلاشت تماماً. الأوراق جُمعت، والأدراج أُغلِقت، والستائر أُسدِلت بنظام صارم.

وقفتُ في منتصف الصالة، يطوقني هذا الفراغ النظيف المرعب، وجسدي ينتفض ببرودة مفاجئة وأنا أسأل نفسي بذهول علميّ عاجز: أيُعقل أن يكون كل ما عشته وعانيته، كل تلك التفاصيل الحية التي ما زلت أشم رائحتها في كفي، مجرد كوابيس متلاحقة نسجها وعيي المشوه في غمرة نومي؟

كان هذا الاحتمالُ هو الملاذَ الآمنَ الوحيدَ لعقلي لكي لا ينفجر تحت وطأة ما شهدتُه. اقتنعتُ به مستسلماً، وركضتُ إلى الحمام كمن يهرب من تعقيد الفكرة إلى بساطة المادة.

فتحتُ الصنبور على أقصاه، ووقفتُ تحت تدفق المياه الساخنة. كانت القطراتُ تنزل فوق رأسي كثقيلةٍ ومحتدمة، تتلوها غصّةُ بخارٍ كثيف أخذ يملأ أركان المكان حتى اختفت صورتي في المرآة تماماً.. واستسغْتُ ذلك الاختفاء، بل تمنيته؛ فالمرءُ لا يهربُ تحت الماء الساخن ليغسل جلده، بل

لعلّه يذيبُ الفكرةَ التي استقرت في قاع جمجمته، أو يخنق بالبخار ذاك الشك الذي يرفض أن يمتصّه المنطق.

أغمضتُ عينيَّ والحرارةُ تكاد تكوي كتفيّ، لعل هذه المياه تطهرُ جسدي من بقايا الرعب الذي استقر في مسامي. لكن الخوف لا يُغسل بالماء؛ إنه حبرٌ سرّي يُكتب به على العقل، وكلما زادت حرارة الجسد، ازداد وضوحاً.

مسحتُ البخار عن وجهي، ارتديتُ ثيابي الرسمية بآليةٍ مفرطة، ونزلتُ متوجهاً إلى العيادة.. أجرّ خطاي، ومحاولًا بشتى الطرق استعادةَ وقاري المهني الذي بدأ يتداعى.

وصلتُ إلى الطابق الذي تقع فيه عيادتي، ففوجئتُ بأن الباب الخارجي مشرع على مصراعيه، والأنوار مطفأة، والممر فارغ تماماً. لم تكن السكرتيرة قد حضرت بعد، مع أن دوامها الرسمي يُفترض أنه بدأ منذ قرابة الساعة. انتابني قلق طفيف، فسحبتُ هاتفي واتصلتُ بها لأستفسر عن سبب هذا الغياب غير المعتاد.

أجابتني بنبرة غلب عليها النعاس والاستغراب، وقالت حرفياً: "صباح الخير د. نوح.. أنت من أرسل لي رسالة نصية في ساعة متأخرة من الليل لتخبرني بأن اليوم إجازة رسمية للعيادة.. يمكنك التأكد من صندوق الرسائل الصادرة في هاتفك إن كنت قد نسيت."

تصلبتُ في مكاني، وشعرتُ ببرودة تسري في أطرافي. فتحتُ الهاتف على الفور وتفقدتُ الرسائل الصادرة، وكانت الصدمة الأولى: لقد أرسلتُ لها بالفعل رسالة نصيّة عند الساعة الثالثة فجراً، صياغتها دقيقة وكلماتها واضحة تأمرها بعدم الحضور! لكن.. كيف؟ ومتى كتبتُ هذه الأسطر وأنا لستُ في وعيي؟ ثمة تشخيص نُطلقه على مثل هذا الفراغ:

"فقدان الذاكرة الفصامي" (Dissociative Amnesia)، حين ينجز الشخص أفعالًا معقدة وواعية ظاهرياً، ثم لا يحتفظ عقله بأي أثر لها، كأن جزءاً آخر منه قد استعار الجسد لبرهة وأعاده دون إيصال. ولماذا أمنحها إجازة وأنا أملك جدولًا مزدحماً بالمرضى؟

أنا طبيب نفسي، قضيتُ عمري أُداوي عقول الآخرين، لكن يبدو أنني اليوم صرتُ أكثر من في الأرض حاجة إلى طبيب.. نسمي في عيادتنا هذه القدرة "البصيرة المرضية" (Insight): إدراك المريض أن ما يمر به خللٌ لا حقيقة. والمفارقة القاسية أنني، وأنا الخبير في قياسها لدى الآخرين، عجزتُ عن تحديد ما إذا كانت بصيرتي أنا لا تزال سليمة، أم أنها أول ما فقدته دون أن أشعر!

دخلتُ مكتبي الخاص، وأغلقتُ الباب ورائي بقوة. جلستُ خلف طاولتي والأفكار السوداء تتقاذفني كأمواج عاتية. كنتُ بحاجة ماسّة إلى تبرير علمي، تفسير منطقي واحد يلم شتات هذا التمزق النفسي الذي أعيشه.

وفجأة، وحين رفعتُ رأسي، تجمدت الأنفاس في صدري. كان الرجل نفسه.. ذلك الزائر الغامض الذي زارني بالأمس غارقاً في حكايته، الشخص الذي لم يذكر اسمه ولم يترك أي بيانات في سجل المواعيد. كان واقفاً هناك.. قرب النافذة الكبيرة، مولياً ظهره إليّ وشاخصاً بنظره نحو الشارع في الأسفل.

التفتَ إليّ ببطء شديد، ورشقني بنظرةٍ غامضة عجزتُ تماماً عن فك شفرتها؛ نظرة كانت مشحونة باعترافات كثيرة تدفقت دفعة واحدة، لكنها صُيغت بلغةٍ غريبة وأبجديةٍ عصية على الترجمة، كأنها إشارات قادمة من وعيٍ آخر لا ينتمي لعالمنا.

تراجعتُ خطوة إلى الوراء، وقلتُ له بنبرة امتزج فيها الفزع بالاستغراب الشديد: أنت؟ كيف دخلت إلى هنا؟

التفت إليّ ببطء، وارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الباردة والمريبة ذاتها، وقال بصوت خفيض :وجدتُ باب العيادة الخارجي مفتوحاً.. فدخلتُ وانتظرتك في مكتبك. أتستطيع الاستماع إليّ اليوم وتكملة حديثنا، أم تفضل أن آتي في وقت آخر؟

منظور العقل الطبي كان يحتم عليّ أن أرفض استقباله فوراً؛ فحالتني النفسية المتدهورة تمنعني من الإدراك والتركيز وتدوين الملاحظات، لكن لشدة فضولي المهني والإنساني القاتل، ورغبتي العارمة في معرفة نهاية قصته التي تتقاطع مع كوابيسي، جعلوني أبتسم له بتكلف وقلت : تفضل.. اجلس في مكانك، أنا مستعد للاستماع إليك.

في هذه المرة، لملمتُ شتات نفسي، ومددتُ يدي المرتجفة لأشغل آلة التسجيل الصوتي الموضوعة على مكتبي؛ فالرجفة الكامنة في أصابعي لن تسعفني لتدوين ملاحظاتي على الورق كالمعتاد.

تمدد الزائر على كرسي المرضى الجلدي، ونظر إلى السقف بآلية، فبادرتُه قائلًا: بالأمس.. توقفنا في حديثك عند تلك اللحظة الحرجة التي حُقنت فيها بالمخدر وبدأت تفقد وعيك داخل السيارة السوداء.

تنهد بعمق، وحرك رأسه نفياً وقال بنبرة حزينة: لا يا دكتور.. بل كنتُ أتمنى من كل قلبي أن أفقد الوعي كلياً في تلك اللحظات كي لا أُجبر على إكمال فصول تلك التجربة الجحيمية. كان الطريق طويلًا وممتداً كأنه سفر بين العوالم. وفجأة، أوقفوا السيارة، وسمعتُ أحدهما يقول للآخر بنبرة حاسمة: "هيا جهّزه.. لقد وصلنا إلى الموقع". نزلا من المقصورة،

وسحباني من ساقيّ بفظاظة، ثم وضعاني داخل تابوت خشبي ضيق، ونقلاني إلى مكان غامض لا أعرف ماهيته ولا شكله. كل ما كنتُ أشعر به وأنا مصلوب في الظلام هو تلك الاهتزازات العنيفة للتابوت، ورائحته المقرفة الشبيهة بالعفن والرطوبة، والأكسجين الذي بدأ يتناقص ويقل في صدري حتى كدتُ أختنق، دون أن أملك القدرة على الصراخ أو الحراك.

بعد وقت لا أعلم مداه، غبتُ عن الوعي حقاً.

صمت لبرهة كأنه يستجمع أنفاسه، ثم تابع ببرود مخيف: لا أعرف كم استمرت مدّة ذلك الغياب والتّيه؛ ربما كانت ساعاتٍ أو أياماً، وربما شهوراً أو حتى سنواتٍ طويلةً.. لكن الشيء الوحيد الذي أوقنه، هو أنني في نهاية المطاف، استيقظتُ وكأنني شخص آخر تماماً. كان جسدي خفيفاً لدرجة لا تُعقل، وحركتي سريعة وخاطفة، ولم يعد لدي أي إحساس مادي بالألم أو البرد، كنتُ كأنني نسمة هواء عابرة بلا وزن. نظرتُ حولي مذهولًا، فوجدتُ نفسي في فراغ مطلق ومساحات شاسعة باهتة لا نهاية لها.

التفت إليّ فجأة، وقال بنبرة ساخرة :أنا أعرف جيداً ما يدور في خلدك الآن يا د. نوح؛ تقول في نفسك إن هذا الرجل الجالس أمامك ليس سوى مجنون مريض، يروي قصة هذيانه ويتخيل حكايات خرافية لا وجود لها في الواقع، أليس كذلك؟

هززتُ رأسي نفياً وأنا أحاول الحفاظ على هدوئي: لا.. أبداً، أكمل حديثك، يهمّني جداً أن أسمع بقية ما حدث معك.

استطرد الزائر وعيناه تلمعان ببريق غامض: بدأتُ ألتفت يميناً ويساراً في ذلك الفراغ، لعلّي أجد كائناً واحداً أتحدث معه أو أستفهم منه عن طبيعة المكان، لكنني لم أجد أحداً. بقيتُ أمشي وأتخبط في ذلك المجهول،

وفجأة، شق الصمت صوتٌ جهوري غريب ينادي باسمي بدقة. التفتُّ مذعوراً نحو مصدر الصوت، فوجدتُ شبحاً.. نعم، شبحاً حقيقياً يتحدث معي، وكانت هذه هي المرّة الأولى في حياتي التي أرى فيها كائناً ما ورائياً. سألته بصوت متقطّع عن هويته ومن يكون، فأجابني بنبرة حاسمة: "أنا من اشتراك من الوسيط، لتكون خادمنا المطيع الذي سينفذ كل ما يُطلب منه في عالم البشر". لم أستوعب ما قاله؛ ماذا يعني أن أكون خادماً؟ ومن يكون هو أصلًا؟

لم أستطع رؤية ملامح وجهه؛ فكل ما كان يظهر لي هو ضوء قوي مشع، منبعث من بقعة وجهه بكثافة تحرق العينين وتطعن القرنية. كان بياضاً مطلقاً ومفرطاً إلى الحد الذي جعلني أدرك، في تلك اللحظة الرهيبة، أن الضوء إذا اشتد وعظم، يصبح كالظلام تماماً.. ونفقد فيه الرؤية.

تراجعتُ وأنا أحجب عينيّ بكفي، وصرختُ فيه بصوت خنيق: دعني أراك على حقيقتك!

فجاءني صوته باستهزاء بارد يتردد في أركان الغرفة: "الخدم لا يرون أسيادهم أبداً.. كل ما عليك هو التنفيذ دون سؤال. وليس هذا فحسب، بل إن أمامك أربعين سنة كاملة تعيشها داخل مقبرة قديمة، تراقب فيها كل جثة طازجة تُدفن، ثم تنبشها وتعود لتُسلمنا منها شيئًا، وتترك مكان القبر المكافأة اللازمة لأهل الأرض". سألته بذهول كيف أفعل ذلك وأنا لا أفهم شيئاً ولا أستوعب هذا الجنون، فضحك بصوتٍ أجوفٍ يتردد في خواء المكان كأنه قادم من سرداب مهجور، وقال إن كل من يصل إلى هذه المهمة لأول مرّة يكون هكذا.. لا يفهم شيئاً.

انقبض صدري، وقلتُ له بصدق ودون وعي مني: وأنا أيضاً لا أفهم ما تقوله.. وقد صار هذا الأمر معقداً وصعباً على عقلي.

ثبّت الزائر نظراته المخترقة في عيني، وسألني مباغتاً بنبرة هادئة حملت وزناً ثقيلًا: هل تؤمن بوجود الجن يا دكتور؟

شعرت بوخزة في عمق وعيي، لكنني حاولت التمسك بخلفيتي العلمية وثباتي المهني، واعتدلت في جلستي قائلًا: الجن مخلوقات غيبية مذكورة في الموروث وفي جميع الكتب السماوية، هذا أمر إيماني لا جدال فيه.. لكنني هنا، كطبيب نفسي وعالم مادي، لا أؤمن بوجود تقاطع مادي أو تأثير بيولوجي مباشر بينهم وبين الإنسان في عالمنا الواقعي. كل ما يراه البشر من مسّ أو أصوات ليس سوى اختلالات في الكيمياء العصبية للدماغ.

ابتسم الزائر ابتسامة باهتة لم تصل إلى عينيه، وقال مقاطعاً: اختلالات عصبية؟ ما أسهل أن تضعوا معاضل الوجود في زجاجات الأدوية! أخبرني إذاً يا دكتور.. هل تعتقد أن الخوف الذي تشعر به الآن في صدرك، والبرودة التي تسري في أطرافك وأنت تنظر إليّ، هما مجرد "أعراض" لمرض تشخصه في كتبك؟ أم أنه تجلٍّ لشيء أقدم من الطب نفسه؟

ابتلعت ريقي بصعوبة، وكان صوته يضغط على جدران عقلي، فأجبته محاولًا استعادة نبرة اليقين: العلم يفسر الخوف كاستجابة غريزية للمجهول. أنت تحاول التلاعب بوعيي، لكن الفصام والذهان لهما تفسيرات بيولوجية واضحة، والهلوسة البصرية لا تعني أن المحفز خارجي.. بل هي صناعة داخلية لعقل مأزوم.

وبينما الكلمات تخرج من فمي، سمعتُ فجأة ومن خلف النافذة صوت ارتطام مروع لحادث سيارة، تلاه صراخ هستيري واستغاثات ناس تتعالى في الشارع. من دون تفكير، دفعتني غريزتي الإنسانية والطبية، فركضتُ مسرعاً نحو النافذة وأطللتُ برأسي لأرى حجم الكارثة بالأسفل.

نظرتُ إلى الشارع بذهول، فلم أجد أي أثر لحادث! حركة السيارات كانت إنسيابية وطبيعية، والمارة يسيرون بهدوء تام، بل إنني في تلك اللحظة لم أعد أسمع حتى أصوات الصراخ التي كانت تصم آذاني قبل ثوانٍ! تملّكني العجب، والتفتُّ خلفي سريعاً لأسأل الرجل الجالس معي إن كان قد سمع ذلك الدوي والصراخ.. لكنني تجمدتُ في مكاني.

لقد اختفى! الكرسي كان فارغاً تماماً.

إلى أين ذهب؟ وكيف خرج بهذه السرعة الخارقة من العيادة دون أن أسمع حتى قعقعة مقبض الباب أو صوت فتحه وإغلاقه؟

بدأت دقات قلبي تخفق بسرعة جنونية ترج صدري، ووقعت عيني بالصدفة على آلة التسجيل الموضوعة على المكتب، والتي كانت مؤشراتها الضوئية تشير إلى أنها ما زالت تعمل وتسجل الصمت.

مددتُ يدي المرتجفة، أوقفتُ التسجيل، وأعدتُ الشريط إلى نقطة البداية، ثم وضعتُ السماعات في أذني وأصغيتُ بكل جوارحي.

كان شريط التسجيل شبه فارغ؛ صوت أنفاسي وصوتي أنا وحده هو الموجود في الغرفة، أتحاور مع الفراغ، وأجيب على أسئلة لم تُطرح!

ولكن.. أين اختفى صوت هذا الزائر؟ كيف لم تلتقطه اللاقطة الحساسة؟

انفجرت الأفكار في رأسي، فتحتُ حاسوب العيادة الشخصي على الفور، واستعرضتُ نظام تسجيل كاميرات المراقبة المثبتة في الردهة ومكتب الاستقبال والممر المؤدي لمكتبي. وكانت الصدمة الكبرى والنهائية التي زلزلت كياني: لا وجود إطلاقاً لهذا الشخص! الكاميرات أظهرتني وأنا أدخل العيادة بمفردي، وأجلس بمفردي، وأتحدث طوال الجلسة مع مقعد جلدي فارغ تماماً على مدى يومين متتاليين! لا صوته سُجل في الآلة، ولا جسده رصدته الكاميرات الرقمية.

جلستُ خلف مكتبي مذهولًا، وأنا أُطبق كفيَّ بقوة هستيرية حتى ابيضّت مفاصل أصابعي وغارت أظافري في راحتيَّ من شدة الضغط والوجع. قلتُ لنفسي بصوت مبحوح يكاد يُسمع وسط الصمت: لا.. أنا لستُ مريضاً، ولستُ غارقاً في الهلاوس.. عقلي لا يمكن أن يخونني بهذا الشكل.

وقبل أن أسمح لفكري بالانزلاق نحو أي تفسير ما ورائي أو خرافي يهدد عقيدتي العلمية، اتخذتُ قراري الحاسم: سأُثبت ذلك بالدليل العلمي القاطع. سأتوجه فوراً لإجراء أشعة رنين مغناطيسي على دماغي؛ إن كان هناك خلل في ناقل عصبي أو ورم خفي يخونني ويصنع لي هذه الأطياف، فستكشفه أجهزة الأشعة بوضوح. وإن كانت الصورة الطبية نظيفة وسليمة.. فسأعرف حينها يقيناً أنني أواجه كياناً مظلماً لا اسم له بعد في كتب الطب البشري.

النفق

لم أطلع أحداً من زملائي أو مقربيّ على ما اعتزمتُ فعله؛ فحتى مجرد اختلاق تبرير طبي لطلب صورة رنين مغناطيسي (MRI) لدماغي كان كفيلًا بإثارة حزمة من الأسئلة الشائكة التي لا أملك لها أدنى إجابة. اتصلتُ مباشرة بمدير مركز أشعة خاص، كنتُ أُحيل إليه بانتظام بعض حالاتي السريرية حين تستدعي الضرورة الطبية استبعاد أي مسبب عضوي أو بنيوي للخلل النفسي. اخترعتُ لنفسي عذراً واهياً يناسب وقاري كطبيب: نوبات صداع نصفي حادة ومتكررة، تترافق مع اضطرابات بصرية طفيفة وأرق مزمن. في الحقيقة، لم أكن كاذباً تماماً؛ فكل هذه الأعراض البيولوجية كانت قد بدأت تنهش جسدي بالفعل تحت وطأة الرعب.

في صباح اليوم التالي، كنتُ مستلقياً بالكامل، وجسدي ممدد فوق تلك الطاولة المعدنية الباردة لجهاز الرنين. ألبستني الفنية سماعتين ضخمتين مصممتين لتخفيف الضجيج الصاخب للآلة، وطلبت مني بنبرة روتينية ألا أتحرك بتاتاً، وأن أُبقي عينيّ مغمضتين طوال فترة الفحص إن استطعت.

بدأت الطاولة تنزلق ببطءٍ ميكانيكي صامت نحو جوف الأنبوب الضيق.

أنا الطبيب الذي قضى ردحاً من عمره يوصي مرضاه بالمنطق، ويحثهم على تفكيك مخاوفهم بالأدوات العقلانية، وجدتُني للمرة الأولى في حياتي أختبر رعباً من طراز مختلف تماماً؛ لم يكن رعب المجهول هذه المرة، بل كان رعب الاحتجاز المطبق .(Claustrophobia) كان الأنبوب شديد الضيق، والسقف البلاستيكي الأبيض يكاد يلامس أرنبة أنفي، والضجيج المنتظم والوحشي للآلة يتصاعد في الفراغ كطرقات معدنية ثقيلة ومستمرة تُدق بآلية فوق عظام جمجمتي.

حاولتُ استحضار كل ما أكنزه في ذاكرتي من أبحاث علمية حول رهاب الأماكن المغلقة، حاولتُ أن أمنح تسمية علمية دقيقة لما أشعر به عوضاً عن الاستسلام التام لسطوته؛ فهذه أول قاعدة ذهبية نُلقنها لمرضانا في العيادة: "سَمِّ الخوف لتبدد غموضه، فالتسمية الواعية تجرد الخوف من نصف قوته".

قلتُ لنفسي، محاورًا وعيي في صمت: هذا مجرد نفقٍ من معدن وبلاستيك، وهذا الضجيج الصاخب ليس سوى ملفاتٍ كهربائية تولّد مجالًا مغناطيسيًا هائلًا. لا أشباح هنا، ولا أرواح، ولا شيء يتجاوز قوانين الفيزياء. أنا الآن في أكثر بقاع الأرض أمانًا... في قلب العلم ذاته.

حاولتُ أن أتشبث بهذه الحقائق كما يتشبث الغريق بخشبة عائمة، لكن فكرةً باغتتني من حيث لا أدري: هل أخاف الموت؟

لم يكن جوابي كما توقعت.

طوال سنوات عملي، لم أتعامل مع الموت بوصفه وحشًا أسطوريًا، بل بوصفه حدثًا بيولوجيًا محضًا؛ لحظةً يتوقف فيها القلب عن الضخ، ثم ينطفئ الدماغ، وتشرع الخلايا في رحلتها الأخيرة. لم أرَ فيه أكثر من النهاية الطبيعية لآلةٍ بالغة التعقيد اسمها الإنسان.

لكن الإنسان، مهما حفظ من كتب التشريح، يبقى عاجزًا عن تشريح خوفه.

لم أكن أخشى الموت نفسه...

بل كنت أخشى أن أصل إلى لحظةٍ يعجز فيها كل ما تعلمته عن تفسير ما أراه. وإذا كان الدماغ هو العضو الذي يصنع إدراكنا للعالم كله... فمن يضمن لي، في هذه اللحظة تحديدًا، أنه لا يخدعني؟

كان هذا السؤال أخطر من كل الأشباح التي سخرتُ منها يومًا. لأنه لا يطعن في سلامة عقلي فحسب، بل في الأداة الوحيدة التي أملكها للحكم على الحقيقة.

كان هذا المفهوم يمنحني تحصينًا زائفًا؛ درعًا من المصطلحات العلمية الباردة أُخفي خلفها ارتجاف جسدي، وأقنع بها نفسي أن كل ما مررت به لا بد أن ينتهي بتفسيرٍ عقلاني، مهما بدا بعيدًا.

وفي تلك اللحظة بالذات...

في قلب العلم...

سمعتُ الهمسة!

لم تكن ككل الهمسات المبتورة التي تناهت إلى مسامعي في ردهات المنزل أو زوايا العيادة؛ بل جاءت أقرب من أن تُحتمل، كأن فمًا دافئًا التصق بصِماخ أذني من داخل جوف الأنبوب نفسه، ثم همس بنبرةٍ ساخرة:

"احتميتَ بالآلة... لأنك لم تجد ما تحتمي به داخل رأسك".

ثم أعقبها بصوتٍ أخفض، وأكثر التصاقًا بروحي:

"حتى هنا... في قلب العلم... لن تُفلت مني يا نوح".

فتحتُ عينيّ برعب وهلع شديدين، ضارباً بعرض الحائط تحذيرات الفنية الصارمة. ورأيتُ لبرهة خاطفة لا تتجاوز نبضة قلب واحدة أو رمشة عين ظلًا هلامياً معتماً يتحرك وينقبض داخل الأنبوب الضيق ذاته، في ذلك الفراغ شبه المستحيل الذي لا يتسع لغير جسدي الممدد!

كان ظلًا أسوداً كثيفاً، يعاد تشكيله ليأخذ الملامح الجسدية ذاتها للرجل الذي رمى نفسه من فوق السطح!

صرختُ بكل ما أوتيتُ من قوة، وارتج جسدي فوق الطاولة. شق الصمت صوت الفنية عبر ميكروفون التواصل الداخلي، وهي تحاول تطميني بنبرة هادئة ظنتها مهنية: د. نوح.. كل شيء طبيعي تماماً، لا تقلق. الضجيج

المرتفع والذبذبات العالية للجهاز قد تُثير ذعر البعض في الدقائق الأولى من الفحص.. كل ما عليك الآن هو أن تغمض عينيك وتتنفّس بعمق.

تنفستُ بعمق مصطنع أجر به الهواء إلى رئتيّ الضيقتين، ورحتُ أكرر لنفسي، مرة بصوتي الداخلي المذعور ومرة بصوت خارجي خافت لا يتجاوز حد الهمس المبحوح: أنا في مكان آمن.. هذا مجرد جهاز تصوير مقطعي يلتقط صوراً للأنسجة الحيوية لا أكثر.. وما أسمعه وما أراه الآن ليس سوى نتاج إجهاد عصبي حاد، وقلة نوم فظيعة، وضغط نفسي متراكم يضغط على فصي الصدغي وربما كان عليّ، بدل الاكتفاء بالرنين المغناطيسي، أن أطلب أيضاً تخطيطاً كهربائياً للدماغ (EEG)؛ فصرع الفص الصدغي (Temporal Lobe Epilepsy) معروف بقدرته على توليد تجارب تشبه الرؤى الدينية والهلاوس السمعية والبصرية حرفاً بحرف، لدرجة أن بعض الباحثين ربطوا بينه وبين تجارب متصوفة عبر التاريخ..

رحتُ أمارس على نفسي تقنية التأريض (Grounding Technique) كما أُعلمها لمرضى الهلع تماماً في أوج أزماتهم؛ رحتُ أُعدد لنفسي: خمسة أشياء أستطيع سماعها الآن (طرقات الجهاز، أنفاسي، صوت الفنية، حفيف ملابسي، نبضات قلبي).. أربعة أشياء أستطيع الشعور بملامستها لجلدي (برودة الطاولة، قماش المئزر الطبي، رطوبة كفيّ، وسادة الرأس).. ثلاثة أشياء حقيقية وثابتة أعرفها يقيناً عن هويتي: اسمي نوح البحري.. عمري واحد وأربعون عاماً.. وأنا طبيب نفسي عقلاني.

استمر الفحص خمساً وثلاثين دقيقة كاملة.. لكنها مرت عليّ بطيئة، ثقيلة، وممتدة، كأنها أربعون سنة من العذاب في مقبرة مظلمة.

بعد يومين من القلق الحارق، استلمتُ التقرير الطبي المطبوع بيدي المرتجفة. لم أحتمل فكرة الانتظار حتى أصل إلى مكتبي؛ بل مزقتُ الظرف

المغلق وجلستُ أقرأه داخل سيارتي في موقف المركز قبل أن أُشغل المحرك.

كانت النتيجة الطبية واضحة وقاطعة: "الدماغ سليم تماماً. لا وجود لأي أورام(Neoplasm) ، لا أثر لنزيف خفي، لا وجود لآفات عصبيّة أو ضمور بنيوي، ولا يوجد أي مؤشر عضوي أو بيولوجي لأي خلل يمكنه علمياً أن يُفسر ما أراه من أطياف أو ما أسمعه من هلاوس".

يُفترض بتقرير كهذا، يثبت سلامة جسدي، أن يكون خبراً ساراً ومطمئناً لقلبي. لكنه، على العكس من ذلك تماماً، كان أثقل وأبشع خبر تلقيتُه في حياتي بأسرها؛ لأنه ببساطة أغلق في وجهي آخر باب طبي وعلّمي كنتُ أتوسل وأتمسك بمقبضه لأخرج من هذا الجحيم إلى رحاب العقل والمنطق.

لم يعد أمامي أي تفسير عضوي ينجدني، ولا حتى تفسير نفسي تقليدي يمكنه أن يقنعني كما يُفترض بطبيب نفسي حاذق أن يقتنع بهذيان وعيه. لقد تهاوت الحصون العلمية التي بنيتها طوال حياتي، ولم يتبقَ أمامي سوى باب واحد مظلم لم أكن قد طرقته قط، باب كنتُ طوال مسيرتي المهنية أُغلقه بصرامة وبسخرية في وجوه مرضاى كلما حاولوا الاقتراب منه أو التلميح إليه..

باب ما لا يُفسَّر.. باب الماورائيات.!

الشيخ عابد

تلمستُ هاتفي بنفاد صبر واتصلتُ بصديقي المقرب صالح. رتبتُ الكلمات في ذهني بدقة؛ قلتُ لنفسي إنني بحاجة فقط إلى رؤية وجه مألوف، وسماع صوت من عالم اليقين القديم، حتى وإن لم أملك الشجاعة الكافية لأبوح له بتفاصيل الجحيم الذي يعصف بوعيي.

لكنه، وفور أن أجاب، باغتني بنبرة عاتبة زلزلت ما تبقى من ثباتي، إذ قال : أهلًا نوح.. عجباً، لقد كنا معاً بالأمس في سهرة ممتدة ولم نفترق إلا فجراً، هل اشتقت إليّ بهذه السرعة؟

تجمد الدم في عروقي. كيف يعني أننا كنا معاً بالأمس؟ أي سهرة تلك التي يتحدث عنها وأنا لا أذكر من تفاصيل الأمس، وعصره وليلته، شيئاً مما قاله صالح؟ ثمة ثقب أسود ومخيف بدأ يتسع في ذاكرتي، يبتلع ساعاتي وأيامي دون علمي.. لم يعد الأمر نسياناً عابراً كما نصنّفه سريرياً، بل بات أقرب إلى "الشرود الفصامي" (Dissociative Fugue): تلك الحالة النادرة التي يفقد فيها المرء تواصله مع هويته وذاكرته لساعات أو أيام، دون أن يترك ذلك أثراً واحداً يستطيع الرجوع إليه لاحقاً!

خشيتُ أن أستفسر منه أكثر فيكتشف أمري، ولم أرغب في أن يلمح اضطرابي أو يلحظ الوهن الشديد في نبرتي، فطلبتُ منه برياء متكلف أن نلتقي الليلة، لكنه اعتذر بلطف لارتباطه بالتزامات خانقة في عمله.

حبستُ أنفاسي لبرهة، وشعرتُ بالإنهاك التام وأنا أرى القلاع العلمية التي تحصنتُ بها طوال حياتي تتهاوى، وتنهار قلاعها أمام عيني واحداً تلو الآخر. وبنبرة مترددة، سألتُ صالح إن كان يعرف أو يسمع عن شيخ حاذق وملم بأمور العالم الآخر، خبير بمسائل الجن وحلّ السحر العتيق.

انطلقت من سماعة الهاتف ضحكة صافية من صالح، أتبعها متسائلًا بذهول: شيخ؟ سحر وجن؟ منذ متى صرتَ يا دكتور تؤمن بهذه الخرافات والقصص التي كنت توسعها نقداً وسخرية في مجالسنا؟

التمستُ لنفسي مخرجاً سريعاً واختلقتُ كذبة أكاديمية باردة، فقلت : إنه مجرد بحث علمي مقارن أعمل عليه حالياً، يوضح الفروق الجوهرية بين علم النفس السريري وعلم الأرواح والغيبيات في الموروث الشعبي.

صمتَ صالح للحظات يزن كلامي ويفكّر، ثم طلب مني مهلة قصيرة ليتصل بوالدته؛ فهي أكثر خبرة ودراية منه بمثل هذه العوالم والمسائل .

أغلقتُ الخط، ومرت عليّ عشرةُ دقائق كانت أطول من دهر، حتى اهتز الهاتف برسالة نصية مقتضبة تحمل اسماً واحداً وعنواناً مفصلًا: **"الشيخ عابد"**.

شكرته بردٍّ خاطف، وحوّلتُ وجهة سيارتي على الفور نحو العنوان المكتوب. وطوال الطريق، كان ثمة سوط داخلي يجلد وعيي: لماذا أفعل هذا بنفسي؟ كيف لطبيب نفسي مثلي، أفنى عمره يلوم المرضى الذين يقصدون العرّافين والدجّالين ويهملون العلم، أن يسلك هذا الدرب المظلم؟

لكن صوتاً آخر في أعماقي صرخ بي مستنكراً: لقد جربتَ الطب يا نوح! وفحصتَ دماغك بأدق وأحدث آلة تقنية يملكها هذا العصر المعقم، ولم تخبرك بشيء سوى أنك سليم! أإلى هذه الدرجة الاستثنائية صرتَ يائساً ومحطماً، أم أنك أخيراً بدأتَ تُصغي بجوارحك إلى الحقيقة العارية كما هي، لا كما تريد لوعيك العقلاني أن يفصلها؟

نعم.. بمرارة شديدة أعترف بها: لقد يئستُ تماماً. لم يعد في روحي طاقة متبقية لأتحمل هذا السيل الجارف من الصدمات والمفاجآت الميتافيزيقية؛ أشخاص يظهرون ويغيبون كالأطياف، أنام في فراشي ببيتي المغلق لأستيقظ في زوايا غريبة، والمكان يُقلب رأساً على عقب ثم يعود إلى نسقه المعهود دون أدنى تدخل بشري، أصوات تهمس في أذني من العدم، وسهرات يخوضها جسدي دون أن يحتفظ عقلي بذرّة وعي عنها!

وصلتُ أخيراً إلى عنوان الشيخ عابد. كانت بناية رمادية متهالكة تقبع في سحيق حي شعبي عتيق يغصّ بالمارة. كان درج البناية ضيقاً مظلماً، وأغلب درجاته الحجرية متآكلة كأنها أسنان فكّ مهشم. صعدتُ وأنا

أستحثّ أنفاسي المتلاحقة حتى وقفتُ أمام باب الشقة الخشبيّ المقشر، فطرقتُه بوجل وانتظرتُ قابعاً خلف قلقي.

فتحت لي الباب امرأة متشحة بسواد يلفّ حضورها بالكامل. قلتُ لها بصوت خفيض خنقه الاضطراب : السلام عليكم... جئتُ قاصداً الشيخ عابد.. هل هو موجود؟

ردّت عليّ بنبرة هادئة غلفها لطف جم : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أخي الكريم.. تفضل بالدخول وانتظر في الردهة ربعَ ساعةٍ لا غير، وسيكون الشيخ في استقبالك. ولكن، فضلًا، عليك خلع حذائك قبل الولوج، وأن تضع في هذا الصندوق ما تجود به نفسك كمعونة لأسرة مستورة.

فهمتُ الإشارة الضمنية على الفور، فمددتُ يدي إلى جيبي وأخرجتُ حزمة مالية دون أن أحصيها ونقدتُها إياها .ولأنها كانت المرة الأولى في حياتي التي أدفع فيها لشخص من هذا العالم، كان المبلغ أضعاف ما يقدمه المريدون عادة؛ وقد استشففتُ ذلك من علامات المفاجأة والذهول التي ارتسمت على عينيها الخفيتين خلف النقاب، إذ انحنت باحترام مبالغ فيه، وغدا اهتمامها بي وبراحتي مضاعفاً.

كانت الشقة تغصّ بالبشر، وتناهت إلى مسامعي من خلف الأبواب المغلقة جلبة مروعة؛ كان ثمة صوت امرأة تصرخ بنبرة هستيرية حادة لا تنتمي للمألوف البشري، وصوت الشيخ عابد يعلو فوق ضجيجها وهو يتلو آيات من الذكر الحكيم بصوت جهوري قاصف تتزلزل له الجدران. وفجأة، وكأن غشاء الصوت قد تمزق دفعة واحدة، انشقت تلك الأصوات كلياً وساد المكان صمتٌ مطبقٌ ومريب.

كانت المرأة المنتقبة ما تزال قريبة مني، فسألتها بنوع من التوجس إن كان انتظاري سيطول، فهزت رأسها نفياً بطمأنينة. وبالفعل، لم تمضِ غيرُ دقائق معدودة حتى فتحت لي الباب، وأشارت إليّ بالدخول إلى ردهة الشيخ.

ما إن وطئت قدماي الغرفة، حتى رأيتُ رجلًا خمسينياً جاف الخلقة، يتربع على وسادة منخفضة فوق الأرض. كان يمسك بيده مسبحة طويلة من العقيق الأحمر، وأمامه مبخرة نحاسية عتيقة يتصاعد منها دخان رمادي كثيف ملأ أرجاء المكان برائحة نفاذة غريبة، حجبت ملامح وجهه وجعلتها باهتة غامضة المعالم. تقدمتُ بخطى مثقلة وجلستُ على المقعد المقابل له مباشرة.

وقبل أن أنطق بكلمة واحدة، أو أستفتح حديثي لأشرح له علتي، رفع الشيخ رأسه ببطء، ونحّى سحابة الدخان الكثيفة بكفه الخشنة، وثبّت نظراته الحادة في عمق عينيّ وقال بنبرة جافة : كيف حالك اليوم.. يا نوح؟

تطلعتُ إلى وجهه وأنا في ذروة فزع لم أختبر له مثيلًا من قبل. شعرتُ بأوصالي ترتعد هلعاً، لا لأنه عرف اسمي دون إيعاز فحسب، بل لأن الرعب شلّ أطرافي حين تفرستُ في ملامحه المنجلية من خلف الغيام..

لقد كان هو! الوجه عينه، العينان الغائرتان إياهما، والتقاطيع الباردة للشخص الذي زارني على مدى يومين في عيادتي وادعى أنه مريض!

وجدتُني أصرخ فيه بصوت متهدج وعقلي يوشك على الانفجار: من أنت بحقّ من رفع السماء؟ أنا أعرفك جيداً.. أنت الرجل الذي يزورني منذ يومين في العيادة وينام على كرسيّ المـ...

قاطعني فجأة بضحكة مجلجلة حادة، أشبه بضحكة منتصر يرى فريسته تطبق عليها الشباك، وقال بصوت مخيف : هه.. من تُشبهني به يا دكتور قد مات.. مات منذ أربعين سنة كاملة وشبع موتاً في قبره! أما الماثل أمامك الآن فهو الشيخ عابد.. الشيخ الذي سيريحك ويخلصك من هذا العذاب الذي يتخبط فيه وعيك.

تراجعتُ إلى الخلف أطالعه بذعر؛ وهنا حدث ما لم يستوعبه عقلي؛ كانت ملامح وجهه تتلوى أمام عيني وتتغير كعجين رخو، لتبيد فجأة وتتشكل من جديد في تقاطيع رجل آخر مختلف تماماً عن ذلك الزائر الغامض!

تملّكني رعبٌ هستيري، وشعرتُ غريزياً أن عليّ أن أنتفض وأهرع خارجاً من هذه الشقة فوراً، لكنني حين حاولتُ النهوض، اصطدمتُ بالفاجعة: جسدي ثقُل كأنه قُدّ من رصاص، ولساني عُقد وانحبس الصوت في حنجرتي، وغدوتُ مصلوباً فوق مقعدي، عاجزاً عن الحراك أو الكلام، تحت رحمة ذلك الشيخ الجالس أمامي.

أعرف هذه الحالة جيداً من أدبيات الصدمة النفسية؛ نسميها "الجمود التوتري(Tonic Immobility) "، الاستجابة الثالثة للخطر التي نادراً ما نذكرها بجانب أختيها الشهيرتين: "قاتِل أو اهرب .(Fight or Flight) "حين يقرر الجسد، في ذروة الرعب المطلق، أن أفضل فرصة للنجاة هي ألا يتحرك إطلاقاً.. لكن المفارقة المريرة هنا، أن جسدي لم يكن يحميني بجموده، بل كان يسلمني كفريسة مشلولة إلى مخالب المجهول.

السر المطرود

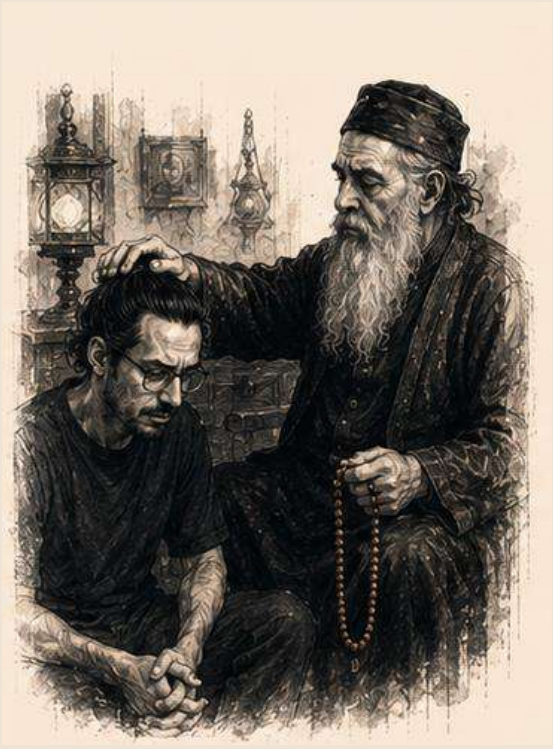

قبل أن أتمكن من استيعاب شللي المفاجئ، تحرك الشيخ عابد من مكانه بخفّة لا تناسب سنّه، واقترب مني بخطى ثابتة. وقبل أن أملك القدرة على الاستغاثة، طوّقت كفاه الخشنتان جمجمتي بقوة هستيرية، وضغط بأصابعه الغليظة فوق صدغيّ بعنف أذهل وعيي، ثم أغمض عينيه وبدأ يتلو بصوتٍ جهوريّ قاصف هزّ أركان الغرفة:

"لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ"

كانت الحروف تخرج من حنجرته كالمطارق، تصطدم بجمجمتي وتُحدث رنيناً مكتوماً في أعماق أذني. تكسّرت في حنجرتي استغاثةٌ مذعورة، والوجل يمزق أحشائي، وسألته بهلع غمر نبرتي: ماذا تفعل؟ ارفع يديك عني!.. أنا طبيب.. ولا وجود لهذه الهلاوس في جسدي!

لم يعر صراخي المكتوم أدنى انتباه، ولم يرد على أملي الواهن في الفكاك، بل تابع القراءة بنبرة وتيرة تصاعدية، شعرتُ معها بالكلمات العلوية كأنها مطارق من نور ونار تهوي على تلافيف وعيي المجهد. جاهدتُ بكل عصب في جسدي المصلوب لأسحب رأسي من بين يديه الفولاذيتين، وقلتُ له بلسان رصاصي ثقيل : دعنا... نتحدث.. أرجوك!

لكن قواي خارت، واستسلمتُ كُرهاً لتلك القبضة التي أحكمت حصار عقلي. استمر في ترتيله الهادر حتى أنهى السورة التي بدأها، وفجأة، سحب كفيه ببطء، وتراجع خطوة إلى الخلف كمن أتمّ مهمة مقدسة. اندفعت الأنفاس في صدري دفعة واحدة مع انهيار ذلك الوثاق الخفي عن أطرافي، فنظر الشيخ إليّ بعينين غائرتين يملأهما إشفاق غامض، ثم ربّت على كتفي المرتجف وقال بصوت خفيض وادع : الآن.. انقشع الضباب وصار بإمكاننا أن نتحدث يا أخ نوح.

ثبتُّ جسدي الواهن فوق المقعد، وسألته بأنفاس متقطعة يطاردها الذهول : أرجوك.. أخبرني ماذا يحدث معي؟ ما طبيعة هذا الجنون؟

أخذ نفساً عميقاً، وحرك مسبحته العقيقية الطويلة ثم قال : أنت لستَ ممسوساً بمسّ شيطاني، ولا أنت مؤذًى بطلاسم سحر عابر. بل ثمةَ صراعٌ عنيف يدورُ من حولك منذ زمن بعيد بين اثنين من عُتاة العالم الآخر.

سرت قشعريرة حادة في أوصالي، وسألته بنبرة خافتة: "من هما؟"

تسمّرت عيناه على خيوط الدخان المتبددة من المبخرة، وقال دون أن يلتفت إليّ : مَلِكٌ عظيم من ملوك الجن.. وروحُ خادم له من عالم الإنس.

سألته والفضول ينبش في صدري، بينما بدأت الخيوط تتشابك في ذهني: وهل.. هل لهما علاقة بذلك الزائر الغامض الذي يتردد على عيادتي؟

هزّ الشيخ عابد رأسه إيجاباً، وقال بنبرة تقطر رعباً: نعم.. ذلك الكيان الذي يتسلل إلى عيادتك ويرقد على كرسي مرضاك ليس بشراً، بل هو طيف روح الخادم الإنسي الذي قضى ونُبش قبره منذ واحد وأربعين عاماً بالضبط.. أما الكيان المظلم الذي طاردته بنفسك قبل بضعة ليالٍ فوق سطح بنايتك وسط الفوضى، فهو الجنيّ المَلِك بذاته.

شعرتُ برأسي يدور كطاحونة، وهتفتُ بذهولٍ يمزقه الإنكار : وما علاقتي أنا بكل هذه الهلاوس والقصص؟ لماذا أنا بالذات؟!

تغيرت ملامح الشيخ عابد فجأة، وغلَب عليها خوفٌ أصيل انكمشت له تقاطيعه، ثم قال بصوتٍ خفيض متكسّر : أنت.. أنت بؤرة الخلاف الجوهري بينهما، والغنيمة التي يتربص بها أحدهما.. وإن أنا كشفتُ لك الآن عن السر البشع والسبب الحقيقي وراء هذا الصراع، فسيفتك بي ذلك المَلِك ويحيل حياتي جحيماً، إذ لا يُسمح لي من فوق الخيوط أن أبوح لك بأكثر مما بحتُ به الآن.

سألته بيأسٍ وإحباطٍ حارق: ماذا تعني بأنه لا يُسمح لك؟ أرجوك يا شيخ عابد.. أنا أضيع، وعقلي ينفلت من عقاله!

لكنه انتفض واقفاً، وأشار بسبّابته نحو الباب ليقاطعني بنبرة حاسمة لا تقبل الجدال: لا تناقشني ولا تجادلني فيما لا يُؤذن لي بالبوح به لحيّ من البشر! اخرج من بيتي فوراً يا نوح.. اخرج ولا تلتفت وراءك، ولا تطأ عتبة هذا المكان مرّة أخرى!

وجدتُ نفسي مطروداً خارج شقة الشيخ عابد، أجرّ خطاي بهوان. نزلتُ الدرج المكسور كالمُخدر، وركبتُ سيارتي المركونة في زاوية ذلك الحي الشعبي الصاحي بالأصوات والمارّة.

وضعتُ المفتاح في مجرى التشغيل دون أن أُدير المحرك؛ بقيتُ جالساً خلف المقود لساعة كاملة، مطرق الرأس، أستعيد بذهني المشتت كل كلمة ألقاها ذلك الشيخ على مسمعي.

حاولتُ عبثاً - أو بالأحرى توسلتُ لوعيي الطبي - أن يقنعني بأن هذا الرجل ليس سوى دجّال محتال، استطاع بفراسته و إشارات لغة جسدي أن يقرأ من عينيّ تفاصيل ما جرى معي، ليحوك منها هذه الحبكة الخرافية.

لكن هذا التفسير العلمي البارد، الذي كنتُ أتشبث به قبل أسبوعٍ واحد كطوق نجاةٍ أخير، بدا لي الآن تافهاً وهزيلًا؛ تفسيراً لا يملك القدرة على إقناع صاحبه الذي يتعلل به.

كيف لعرافٍ في حيّ شعبي أن يذكر رقم "واحد وأربعين عاماً"؟ وهو عمري بالتمام والكمال.. الرقم الذي يختصر كل هذا الجحيم!

الدكتور خالد

لم تكن لديّ الجرأة الكافية للعودة إلى شقتي المطوقة بالظلال. قدتُ سيارتي متخبطاً عبر شوارع المدينة النابضة بالحياة نحو عيادة صديقي القديم، د. خالد؛ رفيق دربي الذي تخرجتُ معه في الدفعة الجامعية ذاتها. توجهتُ إليه دون أي موعد مسبق؛ إذ كنتُ في تلك اللحظة الحرجة بحاجة ماسة إلى عقل يرتدي وزرة كوزرتي، يفهم مصطلحاتي السريرية، ويملك

الشجاعة الكافية ليخبرني بصراحة فجة إن كنتُ قد بدأتُ أفقد صوابي وأنزلق نحو الجنون.

استقبلني خالد بابتسامة ترحيبية معهودة، لكنها سرعان ما تلاشت وتحولت إلى قلق داكن انطبع على تقاطيعه فور أن تمعّن في وجهي.

قال بنبرة خفيضة وهو يمسك بكتفي:

يا رجل.. ما بك؟ وجهك شاحب كالموتى! اجلس فوراً.

تهالكتُ على المقعد، وشرعتُ أسرد له كل شيء؛ انطلقتُ بالحكاية من مبتدئها الأول وصولًا إلى ظرف الرنين المغناطيسي الأسود الذي سحبتُه من جيب سترتي ووضعتُه بين يديه على الطاولة. لم أختزل الأحداث، ولم أُجمل البشاعة؛ بل سكبتُ أمامه التفاصيل والاعترافات كلها كما عشتها دون مواربة.

استمع خالد إليّ بصمت ثقيل وممتد. كان يقلّب صفحات التقرير الطبي، يقرأ اسمي المطبوع بحروف بارزة في أعلى الورقة كأنه يحاول التحقق من أن هذا الدماغ السليم يخصني أنا بالفعل.

حين فرغتُ من حديثي، لم ترتسم على شفتيه تلك الابتسامة المهنية المطمئنة التي نتقنها معاً حين نريد تهدئة روع مرضانا، ولم يهز رأسه بآلية الأطباء؛ بل غرق في صمت مطبق طال أكثر مما ينبغي، ممرراً كفه على لحيته.

قال أخيراً بصوت خفيض:

نوح.. سأحدثك الآن متجرداً من صفتي كطبيب يفحص مريضاً، بل كصديق وفيّ يعرف أصلك وفصلك منذ خمس وعشرين سنة. أنت أعقل رجل وأكثرهم صلابة ومنطقية عرفتُه في حياتي المهنية والشخصية.

أردف وهو ينظر إلى التقرير:

لو أنَّ مريضاً سِواك أتى وجلس على مقعدك هذا وروى لي هذه الأحداث، لكنتُ فتحتُ له ملفاً عاجلًا وبدأتُ معه بروتوكول علاج واضح بمضادات الذهان. لكنني أعرفك تمام المعرفة، وأوقن يقين العلم أنك لا تهذي، ولا تبحث عن لفت انتباه أو استدرار عطف.. وهذا التقييم بالذات هو ما يخلع قلبي.

سألتُه بنفاذ صبر ونبرة مرتجفة:

ماذا تقصد بكلامك هذا يا خالد؟

أجابني وهو يشيح بناظريه عن عيني محاولًا تجنب نظراتي الحارقة:

قبل سنوات طويلة، إبان فترة تدريبنا السريري في المشفى الجامعي، كان لدينا أستاذ عجوز متقاعد. حكى لنا ذات مرة - على سبيل التحذير الأكاديمي لا الجد كما خُيل إلينا وقتها - عن حالة قديمة وغريبة لطبيب نفسي آخر من جيل سبقنا، انتهى به المطاف إلى اعتزال المهنة وإغلاق عيادته كلياً بعد أن أصر بصلابة على أن هناك مريضاً يزوره في مكتبه بانتظام؛ مريض ليس له أي وجود في سجلات المواعيد ولم ترصده كاميرات المراقبة الرقمية. الأستاذ نفسه لم يكن مصدقاً للجانب الماورائي من القصة، لكنه قال جملة ذهبية لم تغب عن ذهني قط:

"إن أخطر ما قد يواجهه الطبيب النفسي في مسيرته، ليس مريضاً غارقاً في هذيانه العابر، بل طبيب يصف هذيان وعيه بدقة سريرية وتشخيصية متناهية لا تقبل الشك."

ثم صمت خالد لحظة، وانحنى نحوي ليتأمل التقرير مرة أخرى قبل أن يواصل بنبرة أعمق وأكثر قسوة:

أنت لا تعاني من خلل كيميائي مبسط يا نوح.. ما تعيشه هو "الرعب الإبستمولوجي" (Epistemological Horror) في أبشع صوره. إنه الكابوس الذي تحاشينا مناقشته في أروقة الكلية؛ أن تستيقظ لتجد أن أدوات المعرفة ذاتها - عقلك، حواسك، ومرجعيتك العلمية الصلبة - قد خانتك كلياً! الخطر في حالتك ليس في الكيان الذي تراه أو الصوت الذي تسمعه، بل في انعدام اليقين؛ أن تصبح مسجوناً داخل إدراكك، عاجزاً عن معرفة ما إذا كانت القشرة الفاصلة بين الواقع ودماغك قد تمزقت، أم أن العالم الخارجي هو الذي انهار بالفعل!

شعرتُ برعدة باردة تسري في عظام ظهري، وتمتمتُ بلسان ثقيل:

وأنا الآن.. أتمثل أمامك كذاك الطبيب المريض؟ غارقاً في فراغ إبستمولوجي لا قاع له؟

تنهّد خالد بعمق وقال:

لا أعرف يا نوح.. وهذا بالضبط ما يبث الذعر في قلبي؛ أنني أقف عاجزاً ولا أعرف. بصفتي طبيبك المسؤول وصديقك، يتحتم عليّ مهنياً أن أطلب منك أخذ إجازة فورية عن العمل، وأن أُحيل ملفك رسمياً لزميل آخر في الجمعية يتابع حالتك بعيداً عن عيادتي، لأنني ببساطة فقدتُ موضوعيتي

معك ولم أعد قادراً على الفصل بين الصداقة والطب. وبصفتي صديقك الذي يحبك، أرجوك متوسلًا ألا تكمل السير في هذا الدرب المظلم؛ احرق كل خيط يشدك إلى هناك، اذهب بعيداً واسترح.

سألتُه بنبرة يائسة:

وإن فرضتْ عليّ الأحداث نفسها.. ولم أستطع الفكاك منها أو تركها؟

ثبت نظراته في وجهي ملياً، ثم انحنى نحوي وقال بصوت خافت كأنه يهمس بسر خطير:

عندها أرجوك.. لا تواجه هذا المجهول وحدك. إن حدث أي طارئ أو داهمك خطب ما، اتصل بي فوراً مهما كانت الساعة؛ سأكون عندك. لكن.. أرجوك، لا تذكر اسمي في أي تقرير رسمي أو إحالة طبية إن قررت المضي قدماً؛ فأنا لا أستطيع أن أُغطي بوقاري المهني ما لا يستوعبه عقلي ولا أفهمه.

خرجتُ من باب عيادته وخطواتي تثقلها الهموم. لقد أضاف خالد إلى حملي الثقيل الذي ينوء به صدري ثقلًا جديداً ومرعباً؛ لم يعد الأمر مجرد صراع شخصي بيني وبين كيانات المجهول والموروثيات، بل أصبحت مواجهة كبرى تهدد مهنتي وسمعتي الأكاديمية التي بنيتها عبر السنين.

أغلقتُ باب سيارتي، واستندتُ برأسي على عجلة القيادة. هناك، في عزلة المقصورة، أدركتُ الفخ الذي أوقعتُ نفسي فيه.. لطالما كانت "العقلنة" (Intellectualization) ملجئي الأخير؛ تلك الحيلة النفسية الدفاعية التي أتقنتُها لسنوات لأفصل بها نفسي عن آلام مرَضاي. واليوم، أمارس اللعبة ذاتها على كابوسي الخاص. كنتُ أفرُّ من البشاعة التي تطاردني إلى

المصطلحات الطبية والأطروحات الفلسفية، أحلل هول ما أراه وأُطلق عليه مسمياتٍ رنانة كـ "الرعب الإبستمولوجي"، فقط لأقنع نفسي بأنني ما زلتُ الطبيب الحصيف الذي يمسك بزمام الأمور.. لا الضحية المرعوبة التي تتهاوى في العتمة.

والأدهى من ذلك كله، أن خالد زرع في ذهني التساؤل المسموم :هل يطاردني المجهول حقاً، أم أنني أعيش الفصل الأخير من انهيار يقيني المعرفي بالعالم؟

وفعلًا، قررتُ أن آخذ بنصف نصيحته الغالية؛ عدتُ كالمُسيَّر نحو المبنى، وضعتُ بعض احتياجاتي الضرورية في حقيبة سفر صغيرة، وأقفلتُ باب شقتي بإحكام. انطلقتُ مستقلًا سيارتي، عابراً حدود المدينة باتجاه المجهول، هارباً من الجدران التي تلفظني.. لكنني لم أترك الخيط السحري خلفي؛ بل أخذتُه معي في خلوتي، متأهباً لفك طلاسمه.

غرفة في نزل

انطلقتُ بسيارتي صاعداً نحو المرتفعات، متوجهاً إلى بلدة جبلية نائية تبعد قرابة الساعتين عن صخب مدينتي؛ فطالما كان مناخ الجبال البارد وضبابها الكثيف يمنحاني سكينة افتقدتُها مؤخراً. فور توغلي في طرقات

تلك القرية شبه المهجورة، استوقفتُ رجلًا يملك دكاناً قديماً على قارعة الطريق، وسألته عن نُزُلٍ أو مأوى يمكنني المبيت فيه.

حدّق في ملامحي المجهدة، ثم ابتسم بوقار مريب وهو يشير بيده نحو عمق المنحدر، دالًا إياي على نُزُلٍ رابضٍ هناك، وعقّب بنبرة اعتذارية: لا أظن أن هذا المكان سيلائم رجلًا مثلك، لكنه للأسف الخيار الوحيد المتاح في هذه الأنحاء.

حدثتُ نفسي مثقلًا بالخيبة : "لا بأس.. لن أخسر شيئاً إن مضيتُ ورأيتُه بنفسي، فجدران أي مأوى ستكون أرحم من شقتي المسكونة".

حين بلغتُ الوجهة، تنفستُ الصُّعداء؛ إذ كان الحال أفضل بكثير مما وُصف لي. كان المكان نُزُلًا قديماً مبنياً من الحجر الجبلي يعبق برائحة الحطب، ويشي بالنظافة والنظام. يديره رجلٌ طاعن في السن يعيش فيه مع زوجته العجوز؛ استقبلاني بترحاب دافئ يبعث على الطمأنينة، وأخبراني بنبرة هادئة أن غرف النُّزُل كلها شاغرة الليلة، وبإمكاني اختيار ما يروق لي.

اخترتُ غرفة في الطابق العلوي، تحوي شرفة صغيرة تطل مباشرة على وادٍ سحيق يبتلعه الظلام والضباب. وضعتُ حقيبتي جانباً، وتمددتُ على السرير كجثة هامدة، راغباً في نفض غبار الطريق ومشقّته عن جسدي المنهك.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة مساءً تقريباً. مددتُ يدي وأطفأتُ ضوء الغرفة من المفتاح المثبت بجوار الوسادة، مغرقاً المكان في عتمة دامسة، ثم أغلقت عينيّ هامساً لنفسي: "لأنم قليلًا.. لعل عقلي يستريح."

لكن هيهات؛ فمن فرط تسارع الأحداث وجسامة الأسرار التي باتت تطحن وعيي، أحسست بجفوني متصلبة، ولم أفلح في الانزلاق نحو النوم. ومع ذلك، تشبثت بقرار الاستسلام وأبقيت عينيّ مغمضتين في عتمة الصمت.

بعد دقائق معدودة، انشق صمت الغرفة عن حركة خفيفة مريبة. تمتمتُ في أغوار روعي محاولًا التهدئة: "لا بد أنها الريح الجبلية تداعب ستائر الشرفة المفتوحة.. لا شيء آخر" .

قررتُ متعمداً تجاهل الأمر، وتوسلتُ لوعيي الطبي أن يطرد الأفكار السوداء، مانعاً الخوف من تجريدي من عقلانيتي مجدداً.

لكن هذا الفرض العلمي تبدد سريعاً؛ فبعد برهة قصيرة، لفحت وجهي أنفاسٌ ساخنة ذات حرارة غير طبيعية، تقترب مني بوتيرة منتظمة، كأن ثمة كياناً خفياً يحني وجهه اللامرئي فوق وجهي مباشرة، حتى كدتُ أشعر بثقله يجثم على صدري .

تجمدت الدماء في عروقي، وتملكني رعبٌ شل أطرافي كلياً؛ خفتُ خوفاً هستيرياً أن أفتح عينيّ فأبصر ما لا طاقة لبشري على تحمّله. بدأتُ أتلو ما تحفظه ذاكرتي من آيات القرآن بصوت يرتجف في حلقي، وأردد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» مراراً وتكراراً، كدرع أخير أتحصن به.. لكن تلك الأنفاس الساخنة لم تبتعد، ولم تتوقف عن بث حرارتها المرعبة فوق جلدي.

سألتُ نفسي بيأسٍ حارق وسط الظلام: "ماذا بعد؟ ماذا يريدون مني في هذه العزلة؟"

كنتُ أرتعد هلعاً من مجرد مواربة جفوني؛ فلم يعد في جهازي العصبي متسعٌ لمواجهة حية مع كيانٍ ماورائي. استمر هذا العذاب الطويل نحو ربع ساعة، حبستُ فيها أنفاسي، حتى تلاشت تلك الحرارة فجأة، وانقشع ثقل الهواء من حولي، فتوقفتُ عن القراءة ولزمتُ الصمت متوجساً.

شيئاً فشيئاً، وبكثير من التردد، فتحتُ عينيّ لأتفحص عتمة الغرفة.

وليتني.. ليتني لم أفتحهما قط!

مسبحة عابد

فتحتُ عينيّ لاهثاً ورأيته.. كان هو ذاته؛ ذلك الغامض الذي ألقى بنفسه من فوق سطح المبنى. تمثل أمامي لثوانٍ معدودة كطيفٍ نُسج من عتمة، ثم تماهى واختفى في زوايا الغرفة. ومع أنني كنتُ على يقينٍ تام، ومستعداً لأن أقسم بأغلظ الأيمان أنني أبصرته بأمّ عيني، إلا أن نزعتي العقلانية سرعان ما عادت لتوبخني؛ إذ حاولتُ إقناع نفسي بأن الأمر لا يعدو كونه هواجس بصرية وهلوساتٍ يفرزها دماغي المجهد.

ومع ذلك، لم أطق البقاء على ذلك السرير الخانق؛ نهضتُ على عجل، وانتعَلتُ حذائي، وحملتُ حاسوبي المحمول وغادرتُ الغرفة بحثاً عن متنفس.

كان النُّزُل يضم ما يشبه شرفةً حدائقية صغيرة تربض على كتف الجبل، وتطل على وادٍ سحيق يبعث على السكينة، حيث كان ضوء القمر يضفي على المشهد جاذبيةً مأساوية ساحرة. تناهى إلى مسامعي من البعيد نباحُ كلابٍ يمزق الصمت، يرافقه صوتُ أم كلثوم العميق، ينساب من مذياع المقهى الوحيد في القرية.

جلستُ هناك، وشغّلتُ الحاسوب، ثم اخترتُ فيلماً كوميدياً للممثل جيم كاري؛ إذ لم يكن من المنطقي في حالتي هذه أن أتابع عمل إثارة أو رعب، فأعصابي الواهنة لم تعد تحتمل مزيداً من الشحن.

وبينما كنتُ مستغرقاً في أحداث الفيلم المنعكسة على الشاشة، لمحتُ على صفحتها الزجاجية السوداء ظلًا لشخص يقترب ببطءٍ وحذر من خلفي.

التفتُّ بذعرٍ شديد، ومعي تسارعت دقات قلبي، فوجدتُ الشيخ المسنّ، صاحب النُّزُل، واقفاً وعلامات الأسف تعلو وجهه. وحين رآني وقد انتفضتُ من مكاني فزعاً، قال مسرعاً بنبرة اعتذارية: باسم الصليب.. لم أقصد إفزاعك يا بني.

تراجع خوفي قليلًا فقلتُ له بأنفاسٍ متقطعة: لا بأس.. الأمر عادي.

كان الرجل يمسك في يده الذابلة بشيءٍ ما، ثم بسط كفه أمامي وقال : عثرتُ على هذه الحبّات في الممر.. لعلها سقطت من جيبك؟

نظرتُ إلى كفّه، فإذا بثلاث حباتٍ من العقيق الأحمر الداكن، اللامع كقطرات الدم، تعود لمسبحةٍ ما.

أجبتُه جازماً محاولًا التملص:

أنت واهمٌ بالتأكيد يا سيدي؛ فأنا لم أحمل مسبحةً في حياتي قط.

حوّلتُ مجرى الحديث ببرودٍ مصطنع، وسألته عن موقع أقرب صيدلية في الجوار، فأشار بيده نحو المنعطف قائلًا:

انطلق فوراً، ولعلك تدركها قبل أن تغلق أبوابها.

غادرتُ النُّزُل واتجهتُ حيث أرشدني، لأدرك الصيدلي في لحظاته الأخيرة قبل الإغلاق. ابتعتُ علبةً من الحبوب المنومة؛ فبعد تلك الوعكة الكابوسية، كنتُ بحاجةٍ ماسة إلى غيبوبةٍ كيميائية تقيني شرّ أي اضطرابٍ ماورائي جديد.

مررتُ بمطعمٍ ريفيٍّ دافئ، تفوح منه رائحة التوابل والطهي البطيء. جلستُ ألتهم عشائي على عجل من أوانٍ فخاريةٍ تصاعد منها البخار كأنها تحتفظ بآخر أسرار الحرارة. لم يكن في المكان سوايا وطاولةٍ واحدةٍ بعيدة، يلتفّ حولها ثلاثة أشخاص؛ أبٌ وأمٌّ وابنهما، تتردد بين أرجائهم ضحكاتٌ خافتة ونظراتٌ مألوفة.

تأملتُ الطفل لبرهة، وانتابتني غصةٌ ثقيلة... كم تمنيتُ لو كنتُ في موقعه! لم أذق طوال حياتي دفء الأسرة، وكان غياب والدي القديم جداراً سميكاً يفصلني للأبد عن هذا الشعور البسيط. علم النفس التطوري يسمي هذا "الحرمان الأبوي المبكر" (Early Paternal Deprivation)، ويربطه غالباً بميلٍ لاحق نحو فرط التحكم والعقلنة كآليةٍ تعويضية؛ وكأن

الطفل الذي لم يجد يداً تحميه، قرر في سريرة نفسه أن يبني حصناً من المنطق، وأن يصبح هو الحارس الصلب الذي لا يخذل أحداً.. ولا يسمح حتى لنفسه بأن تضعف..

شربتُ المتبقي من الماء بمرارة، ثم قفلتُ راجعاً إلى غرفتي.

بدّلتُ ثيابي، وتجرعتُ قرصاً نجح في إخماد الضجيج الثائر داخل رأسي، لأستسلم لأول مرّة لنومٍ ثقيل، ظننتُ أنني سأسترد به شتات عقلانيتي.

استيقظتُ في الصباح التالي والسكينةُ تغمرُ روحي. وعلى وقع صوت فيروز المنساب من بعيد، ارتشفتُ قهوتي الصباحية على الشرفة المطلة على الضباب، وبسطتُ أمامي كتاباً لـروبرت غرين جلبته في حقيبتي؛ إذ أردتُ في تلك اللحظات شحن بطاريتي النفسية التي استُنزِفت على مدار أيام.

كانت عطلة نهاية الأسبوع تلملم أذيالها بسلامٍ ظاهر. وقبل مغادرتي النُّزُل بساعتين متوجهاً إلى بيروت، كنتُ أهاتف سكرتيرتي لتنسيق مواعيد الحالات العاجلة في العيادة. وأثناء إملائي التعليماتِ عليها، وقفت عيناي على شيءٍ أحمر صغير يقبع على الأرضية الخشبية.

اقتربتُ والتقطتُه.. فإذا به حجرُ عقيقٍ أحمر مصقول، تماماً كالحبات التي أطلعني عليها صاحب النُّزُل بالأمس!

داهمني العجب وسألتُ نفسي بإيجاس عن مصدر هذه الأحجار الكريمة؛ فهي قطعاً لم تسقط مني، وأنا لا أقتني المسبحاتِ أصلًا. لكن وعيي الطبي تبرع كالعادة بحجةٍ جديدة مهدئة : لعلها لنزيلٍ سابق شغل الغرفة قبلك.

ولم أحاول حتى التثبت من صاحب النُّزُل حول هويّة من أقام في الغرفة قبلي، مفضلًا الهروب.

حزمتُ حقيبتي وغادرتُ الغرفة قبل الموعد المحدد، سلّمتُ المفتاح، واستقليتُ سيارتي عائداً إلى العاصمة. وفي منتصف الطريق، رنّ هاتفي؛ كان الدكتور خالد يتصل للاطمئنان على وضعي الصحي.

رَدَدْتُ عليه وحدثتُه بنبرة يغلفها الارتياح الواضح، لكنني.. وبينما كنتُ أسرد له سلامة وضعي، لمحتُ فجأة على أرضية السيارة، بجوار ناقل الحركة، بضع حبات متناثرة من ذات العقيق الأحمر!

سكتُّ على الفور وكأن صاعقة ضربت حنجرتي.

تناهى صوت خالد عبر السماعة يسأل بقلق إن كنتُ ما زلتُ معه على الخط، فأجبتُه بآلية وجفاف: خالد.. عشر دقائق وسأعاود الاتصال بك.

أغلقتُ الخط، وتناولتُ حبة عقيق واحدة من الأرضية بملقط أصابعي، ورحتُ أتأمل بريقها الدموي المريب.. وهناك، انقشع الحجاب وصُعقتُ حين أدركتُ الحقيقة البشعة: إنها تشبه تماماً حبات تلك المسبحة الطويلة التي كانت تداعب أصابع الشيخ عابد!

تحولت دفة القيادة عندي إلى جنون؛ ضغطتُ على دواسة الوقود، وقبضتُ على المقود بهستيرية، وخلال ساعتين كنتُ أوقف عربتي أمام بيت الشيخ عابد في ذلك الحي الشعبي.

صعدت الدرج راكضاً، وطرقتُ الباب بعنف، ففتحت لي ذات المرأة المنتقبة التي استقبلتني في المرّة الأولى. قلتُ لها بأنفاس متلاحقة ونبرة مستجدية: أرجوكِ.. أنا بحاجة ماسة لمقابلة الشيخ عابد فوراً.

بقيت واقفة كتمثال صامت خلف نقابها الأسود لا تحرك ساكناً، وكل ما فعلته أنها رفعت يدها المرتجفة وأشارت بأصبعها إلى الجدار الخارجي المجاور للباب.

التفتتْ عيناي إلى حيث تشير، فتلقت الصدمة الكبرى: ورقة نعي بيضاء، مؤطرة بالسواد، مكتوب عليها بحروف عريضة اسم "الشيخ عابد."

تراجعت خطوة إلى الخلف، وقلتُ بصوت متلعثم يقطر ذهولًا: لا حول ولا قوّة إلا بالله.. الشيخ.. الشيخ توفي؟! متى؟ وكيف حدث هذا؟!

هزت رأسها بأسى متحشرج وقالت :ترحّم عليه يا أخي.. واقرأ لروحه الفاتحة وسورة يس. ثم تراجعت خطوة إلى الداخل وأغلقت الباب في وجهي ببطء شديد.

أغمضتُ عينيّ مستنداً إلى الحائط، وشلل تام يطوق جسدي؛ لم أعد أملك القدرة على طرق الباب مجدداً واستجوابها، ولم أقو على العودة إلى سيارتي. وفي تلك اللحظة بالذات، دوت في دهاليز عقلي جملة الشيخ الأخيرة التي قالها لي وهو يطردني من منزله: "وإن أنا كشفتُ لك الآن عن السبب الحقيقي.. فسيفتك بي ذلك المَلِك ويحيل حياتي جحيماً".

أيُعقل هذا؟! هل فتك به الملك الجنّي لأنه باح لي ببعض الخيوط؟ هل مات ذلك الشيخ بسببي أنا؟

أدرتُ ظهري للباب ونزلتُ الدرج كالمسحور، ومشيتُ نحو السيارة بخطواتٍ مثقلةٍ بالإثم والرعب. في الشارع، كان هناك شابان يتبادلان السبابَ الفاحشَ على سبيل المزاح، بألفاظٍ نائية بذيئة طالما كانت تثير اشمئزازي وتزعج مسامعي؛ غير أنني في تلك اللحظة لم أعد أملك أيَّ

قدرةٍ على التفاعل، أو الالتفات، أو التعليق؛ فقد غدت كل تفاصيل العالم الخارجي مجرد ضجيجٍ باهتٍ يتلاشى خلف ثقل رُعبي.

ركبتُ السيارة وأدخلتُ المفتاح في مجرى التشغيل عازماً على الفرار، وفجأة، شقَّ صمتَ المقبض والمقصورةِ صوتُ طرقاتٍ عنيفةٍ وقوية على زجاج النافذة الجانبية!

التفتُّ بهلع، فإذا بالمرأة المنتقبة نفسها تقف في الخارج. أنزلتُ الزجاج بسرعة وأنا استحث أنفاسي :خيرٌ يا أختي؟ ما الأمر؟

أجابتني وهي تلهث بشدة إثر نزولها السريع خلفي على الدرج، وقالت جملة واحدة مقتضبة، صبّت الزيت على نار الحكاية وقلبت مسار مصيري بالكامل: الشيخ عابد أوصى قبل وفاته وقال: "إن عاد الأخ نوح فلا تستقبلوه.. لكن، إن كان مصراً على نبش قبور الماضي والبحث عن الحقيقة، فسيجد ما يعينه في بيت عمّته فاطمة."

بيت فاطمة

رحلتْ عمتي فاطمة عن دنيانا منذ خمس سنوات كاملة، وتفرّق شمل أبنائها حين هاجروا جميعاً إلى كندا بعد وفاتها بعام، لتنقطع أخبارهم وراء البحار وتُغلق خلفهم أبواب الحكاية. كيف لي إذن أن أصل إلى ما أشار إليه الشيخ عابد خلف جدران شقةٍ مهجورة وموصدة منذ أربع سنوات؟

فكرتُ في بادئ الأمر بالاتصال بأحد أبناء عمتي المغتربين لأسأله عن مستودع مفاتيح البيت البديلة، لكن عقلي الحذر لجم خطوتي؛ فما الحجّة التي سأسوقها له في عتمة هذا المساء؟ لا بد أن يباغتني بسؤالٍ بديهي

عن سبب رغبتي المفاجئة في دخول بيت أمه الراحلة، فبماذا عساي أن أردّ عليه؟ لستُ في موقفٍ يسمح لي بتبادل الأحاديث العادية، فأنا في سباقٍ محموم مع الرعب.

وفجأة، ومض في سراديب ذاكرتي اسم جارتها العجوز؛ تلك التي كنتُ ألمح وجهها الطيّب في كل مناسبةٍ وجنازة تخص عائلتنا: أم جميل. نعم، هي ولا أحد سواها؛ فأمثالها من حراس الأحياء القديمة يحتفظون دوماً بنسخٍ احتياطية لبيوت الجيران، ناهيك عن أنّه كانت تربطها بوالدتي علاقةُ جوارٍ ومودةٍ قديمة.

ابتعتُ علبةً من حلوى المعمول كذريعةٍ تقليدية للزيارة، وقصدتُ مبناها العتيق وطرقتُ الباب. وحين فتحت لي، ارتسم الذهول على ملامحها الهرمة، وقبل أن تفيق من دهشتها، بادرتُها بأكذوبةٍ بيضاء حبكتُها في طريقي: بصراحة يا أم جميل.. منذ ليلتين وعمتي الراحلة تزورني في المنام، طيفٌ يتلوه طيف، واليوم وجدتُ قدمي تقوداننى إليكِ بلا وعي.. فهل تأذنين لي بالدخول، لعلني أستنشق بقايا عطرها في جوارك؟

لم تتمالك العجوزُ نفسها، فاغرورقت عيناها بالدموع، وفتحت ذراعيها لتضمني برقةِ الأمومة الدافئة، ثم أفسحت لي الطريق لألج بيتها المتواضع. وضعتُ علبة الحلوى جانباً وجلستُ، ورحتُ أسرد عليها تفاصيل الرؤيا المزعومة: لقد طلبت مني عمتي في المنام - رحمها الله - أن أدخل شقتها المهجورة، وأجلس على طرف سريرها لأرتل سورة "الواقعة" من مصحفها الخاص.. لكنني، وا أسفاه، عاجزٌ عن برّها لأن مفاتيح البيت في كندا مع أبنائها.

ربتت أم جميل على ركبتي بكفها المرتجف وقالت بنبرةٍ حانية : طوّل بالك يا بني.. انتظرني لحظة.

غابت في ردهة بيتها زهاء عشر دقائق، ثم عادت وفي يدها مفتاحٌ نحاسيٌّ قديم، وقالت وعيناها تلمعان بالثقة : لولا أنني أعلم معدنك النظيف وأصلك الطيب يا نوح، ما كنتُ لأفرّط في هذه الأمانة لأحد. خذ.. ادخل بيت المرحومة واقضِ حاجة عمتك، بينما أعدُّ لك فنجان قهوة؛ تنتهي من القراءة وتعود لتشربه وتردّ لي المفتاح.

غمرتني غبطةُ كمن عثر على مفتاح مقبرةٍ أثرية. قبّلتُ يد العجوز امتناناً، وتحركتُ بخطواتٍ متسارعة نحو شقة عمتي المجاورة.

أدخلتُ المفتاح في قفل الباب الحديدي، فدار بصريرٍ جافّ قطع صمتَ الممر. دلفتُ إلى الداخل وأغلقتُ الباب خلفي متحصّناً بالعتمة الثقيلة، ورحتُ أتحسس الجدار البارد ببطء حتى استقرت أصابعي على مفتاح الضوء فكبستُه.

كانت اللمبة المثبتة في السقف من طراز الفلوريسنت القديم؛ فاختلجتْ لثوانٍ معدودة كأنها تلفظ أنفاسها، وأصدرت طنيناً متذبذباً يثرثر بالرعب قبل أن تبث نورها المريض. وفي تلك اللحظة الخاطفة تجسد أمامي ظلُّ الشيخ عابد شاهقاً، واقفاً في الزاوية المقابلة للباب تماماً، ينظر إليّ بحاجبين مرفوعين تحذيراً وكأنه ينهاني عن الخُطوة التالية! لكن الطيف ما لبث أن تماهى واختفى كلياً فور انتظام الضوء الضئيل في أرجاء الصالة.

أطلقتُ ضحكةً ساخرة يملؤها الوجل، وهمستُ لنفسي محاولًا التماسك : أهلًا بك.. زائرٌ آخر في رأس نوح البحري.

حاولتُ بكل ما أوتيتُ من قوة كسر حِصار الخوف الذي أطبق على صدري كلوحٍ صخريّ، وأقنعتُ عقلي بأنه مجرد انطباعٍ بصريٍّ زائف خلفته صدمة

موته على جهازي العصبي المنهك. تقدّمتُ بخطواتٍ حذرة صوب غرفة نوم عمتي لأنجز المهمة التي جئتُ لأجلها.

كانت الشقة مشبعةً برائحة العفن والغبار المتراكم طيلة أربع سنوات، بينما نسجت العناكب شباكها الهندسية فوق المفروشات كأكفانٍ بيضاء متدلية. لم يكترث عقلي المحموم لكل هذا الركود؛ فثمة هوسٌ مظلم كان يدفعني إلى الأمام.

ولجتُ غرفتها وشرعتُ أفتش الأرجاء كالممسوس؛ أقلّب الأدراج، وأنفض الأوراق بحثاً عن أي إشارة تفك لي شفرة هذه اللعنة، والوقت يداهمني لخشيتي أن تلحق بي أم جميل إن أبطأتُ عليها. وفيما كنتُ أرفع المصحف الموضوع على الطاولة الصغيرة بجانب السرير، سقطت من تحته صورةٌ فوتوغرافية مقلوبة على ظهرها.

سحبتُها وقلبتُها نحو النور الباهت؛ صورةٌ تجمع عمتي وأمي في ريعان شبابهما، وتقف بينهما شخصيةٌ جرى طمسُ وجهها وشطبُه بعنفٍ مبالغٍ فيه، باستخدام حبرِ قلمٍ جافٍّ أسود مزَّق خامة الورقة!

مرّرتُ إبهامي بهدوء فوق الموضع المشوّه.. لمستُ خشونة الألياف الممزقة والخدوش الغائرة التي تركها رأس القلم المدبّب، وكأن تلك الخشونة لم تكن على سطح الورق وحده، بل حُفرت في المكان ذاته من عقلي.

تسمّرتُ في مكاني وأنا أطالع الفراغ الأسود الممزق، وسألتُ نفسي بإيجاس :ما سرُّ وجودِ هذه الصورةِ المخفية هنا؟ ولماذا طُمس وجهُ هذا الشخص تحديداً بكل هذا الحقد؟ من عساه يكون.. إن لم يكن أبي؟

حملتُ الصورة وغادرتُ الشقة الموحشة، وعدتُ إلى شقة أم جميل وعلاماتُ الذهول تكسو وجهي. سألتها مباشرةً وأنا أمدُّ لها الصورة: أم جميل.. حين رفعتُ المصحف لأقرأ فيه، عثرتُ على هذه الصورة القديمة مخبأةً تحته. إنها تجمع عمتي وأمي وأبي.. لكن، لماذا طُمس وجهُ أبي بهذه الطريقة البشعة؟ ومن فعل هذا برأيك؟

غريبٌ أمرُ تلك العجوز؛ إذ لم تتفاجأ، ولم ترتسم على ملامحها الهرمة أدنى دهشة، وكأنها كانت تتوقع ما يحويه كفّي، أو كأنها تعرف السرَّ القابع خلف هذا التشوه! لم تَرُدَّ جواباً لسؤالي الشائك، وكانت تتأبط صينية القهوة، فقالت بنبرةٍ التفافية تسعى للهرب: اجلس يا بني.. لنشرب القهوة أولًا ثم نتحدث على مهل.

ارتشفتُ رشفةً من فنجاني، ثم شخصتُ في عينيها وسألتها: أنتِ جارةُ عمتي منذ زمنٍ بعيد، بل منذ ما قبل ولادتي.. أليس كذلك؟

تنهدت العجوز وقالت وهي تطرق بصرها: نعم يا بني.. أذكر جيداً أنه في اليوم الذي وُلِدتَ فيه أنت، طبختُ أنا وعمتك حلوى المغلي للاحتفال، على الرغم من غيمة الحزن والكسر التي كانت تظلّل عمتك في ذلك اليوم بالذات.

قطبتُ حاجبي وسألتها بلهفة: حزينةٌ لماذا؟

أجابت وهي تتطلع إلى الفراغ: في ذات اليوم الذي خرجتَ فيه إلى الدنيا.. اختفى والدك فجأة، ولم يعثروا عليه إلا جثةً هامدة بعد فترة من الزمن.

استطردتُ قائلًا: هل ما زلتِ تذكرين أبي جيداً؟

ردت فوراً: وكيف أنسى فريد البحري؟ كان زينة شباب المنطقة، رجلًا مشهوداً له بالشهامة والأخلاق العالية التي لا يعيبها شيء.

قلتُ بأسىً غائر: للأسف لم أكن محظوظاً لأعرفه، وحتى اليوم.. كلما نبشتُ في العائلة عن سبب وفاته الغامضة والمفاجئة، لا أسمع سوى إجابة مبهمة واحدة: لا نعرف.. مات فجأة.

أومأت برأسها قائلة: هذا صحيح يا حبيبي، لم يكن أحدٌ يعلم حقيقة ما جرى، مات في ظروفٍ غامضة..

قلتُ وأنا ألملم أشيائي مقاوماً حرقة ارتيابي: وأنا بصراحة، ما زلتُ مستغرباً من حال صورته المشوهة هذه.. أريد معرفة اليد التي حاولت محو ملامحه وإسكاتها.

لم تضف أم جميل جديداً يشفي غليلي المعرفي، بل اكتفت بالصمت المريب. أنهيتُ فنجاني، وودعتُها شاكراً فضلها ثم خرجتُ.

وفي طريق عودتي، وأنا أقود السيارة عبر شوارع المدينة التي بدأت تضيق بأفكاري، رحتُ أربط خيوط اللعنة ببعضها: منذ أيام قليلة عثرتُ على وثيقة وفاة أبي مخبأة فوق سرير أمي، واليوم تظهر صورته مشطوبة الوجه تحت مصحف عمّتي الراحلة.. ما الذي يعنيه هذا التزامن المرعب؟

إنه يعني أمراً واحداً لا شية فيه: أبي المرحوم هو جذر هذه اللعنة وأصل الحكاية، لكن السؤال الحقيقي.. لماذا تطفو هذه الأسرار إلى السطح الآن، وبعد واحد وأربعين عاماً من الصمت؟

لا تنم في بيتك

بينما كنتُ أهيمُ بسيارتي في أزقة العاصمة الشاحبة، غارقاً في دوّامة التحليل ومحاولة ربط خيوط هذه اللعنة المتشابكة، ارتفع صوتُ أذان المغرب شاجياً يبدد سكون الفضاء ويشق حيرة صدري. أوقفتُ السيارة في موقفٍ قريب من أحد المساجد العتيقة، ودلفتُ إليه مدفوعاً برغبةٍ عارمة في التماس بقعة سكينةٍ تطرد عنّي هذه الهواجس الشيطانية.

توضأتُ بالماء الدافئ الذي غسل بعضاً من حمى رأسي، ثم صففتُ قدمَيّ وصلّيتُ المغرب جماعةً خلف الإمام.

بعد انقضاء الصلاة وتفرّق الجمع، داهمني ثِقَلٌ مفاجئ وجاثم في أطرافي؛ كان جسدي يئن تحت وطأة الإنهاك النفسي والبدني الذي كابدته طوال الأيام الماضية. أسندتُ ظهري المجهد إلى جدار المسجد الرخامي البارد، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أغرق في غيبوبة نومٍ عميق.

وعلى الرغم من أن تلك الإغماءة لم تتجاوز الساعة والربع، إلا أنني استيقظتُ منها براحةٍ شاسعة وسكينةٍ غريبة لم أذقها منذ دهر. لم تتسلل إلى نومي كوابيس، ولم تطاردني تلك الظلال السوداء المخيفة التي اعتادت أن تستبدّ بي وتربض على صدري مؤخراً.. هل كان ذلك بسبب قدسية المكان وهيبته الطاهرة؟ أم أن روعي سكن لمجرد الفرار من الشارع؟ لا أعلم!

لم أستيقظ إلا على النداء المهيب لأذان العشاء. فتحتُ عينيّ متثاقلًا، فإذا بإمام المسجد يقف فوق رأسي، ينظر إلى ملامحي المنهكة بابتسامةٍ وادعة تُصلح ما أفسده الخوف. بادلتُه الابتسامة بوهن، فنظر في عمق عينيّ كأنه يرى تلك الظلال التي فررتُ منها، وقال بنبرةٍ وقورة:

"ليس كلُّ هاربٍ ضالًا يا بني.. بعضُ الشتاتِ هدايةٌ تنقلك من ضيقِ يَقِينِك البشريّ إلى سَعَةِ غَيْبِ الله. الطمأنينة لا تمنحك الأجوبة، بل تُسقط عنك ثِقْلَ الأسئلة."

ثم ابتسم وأضاف بلطفٍ حانٍ:

"عليك أن تجدّد وضوءك يا بني فقد استغرقْتَ في نومك، وسنقيم صلاة العشاء بعد دقائق معدودات."

نهضتُ واستجبتُ لرجائه، وأثناء الصلاة، غمرتني طمأنينةٌ روحيةٌ شاسعة افتقدتها طويلًا؛ كأن روحاً غير روحي هي التي تصلي. وفي اللحظة الأخيرة، حين التفتُّ أسلّم عن يميني، وجدّتُ المصلي المجاور لي يمدُّ كفّه نحوي قائلًا بنبرةٍ وقورة : تقبل الله.

ودون أن ألتفت لتفحّص ملامح وجهه، صافحتُه بآليةٍ ومقتضبِ القول: منا ومنكم صالح الأعمال. نهضتُ مستعجلًا وأخذتُ أخطو خطوات متسارعة نحو الباب الخارجي عازماً على المغادرة، وفجأةً، شقّ زحامَ الخارجين صوتُ ذات الشخص الذي صافحني قبل لحظات، وهو يناديني باسمي: يا دكتور نوح!

التفتُّ نحوه بفضولٍ مباغت، فتلقتْ عيناي صدمةً ألجمت لساني وجمّدت الدماء في عروقي؛ إنه هو ذاته! الرجل الذي تردد على عيادتي وقصَّ عليّ تلك الحكاية المريبة التي سلبتني نومي وغرست في صدري وسواساً لا يهدأ.

قلتُ بصوتٍ متحشرج تائه، يختنق بالذهول في حلقي الجاف: أنت؟! كيف..؟!

ابتسم لي بهدوءٍ مريب، وحرّك رأسه بإيماءةٍ غامضة تُبطن أكثر مما تُبدي، ثم قال بنبرةٍ قاطعة: غداً في الصباح الباكر سآتيك زائراً في العيادة.. لكن، إياك أن تبيت في منزلك الليلة! احذر أن تنام في بيتك أرجوك.

تركني هائماً في ذهولي، واندمج بلمح البصر وسط جموع المصلّين المغادرين. حاولتُ أن أستوقفه أو أركض خلفه مستوضحاً سرَّ تحذيره، لكنه تماهى واختفى بين الأجساد كأنه طيفٌ خُلق من سراب.

وقفتُ في عرض الشارع وشعورُ الخطر يتغلغل في أوصالي، أحدث نفسي بإيجاسٍ مضطرب: إن لم أبت في منزلي الليلة، فأين عساي أن أقضي ليلتي؟ لم يجد عقلي المنهك ملاذاً سوى وجهةٍ واحدة: العيادة. سأنام على أريكة مكتبي، وهناك سأنتظر بزوغ الصباح لينجلي هذا الغموض ونلتقي.

ولجتُ عيادتي المظلمة، ومددتُ جسدي المثقل فوق الأريكة الجلدية في مكتبي، فتأوّهت تحت ثقلي بصوتٍ أنين جاف. لم يكن ما عشته بعدها نوماً بمفهومه الروحي، بل كان مجرد احتضارٍ ذهني ومكابدةٍ قاسية؛ رحتُ أدنو من حافة الجنون وأنا أفكّر فيما يخبئه لي الصباح. كانت المخاوف تفرض سطوتها المطلقة على تفكيري المنهك، لكن في مقابل ذلك الرعب، كان ثمة هاتفٌ غائرٌ يستعر في أعماقي، يدفعني بضراوة لأن أمضي في نبش هذا الماضي المظلم حتى نهايته المحتومة.

وفجأةً، وبشكلٍ غير مفهوم، تسللتْ إليّ شجاعةٌ مجهولة المصدر، كأنما خَدَرٌ مفاجئ شلّ أجهزة إنذاري؛ فطارت الأفكار السوداوية من رأسي واستسلمتُ لرقادٍ ثقيل.

في تلك الليلة، رأيتُ كابوساً مروعاً لا أتمنى حتى لعدوّي أن يلمح طيفه؛ رأيتُ نفسي أركض بهستيريةٍ وسط أحراشٍ صخريةٍ مهجورة تغشاها الضباب، وأنا أقبض بيدي على تلك الصورة المشطوبة الوجه التي عثرتُ عليها في شقة عمتي، بينما كانت تلاحقني من الخلف عنزةٌ مرعبة الأوصاف! لم تكن حيواناً عادياً بالمرّة؛ إذ كان لها رأسُ إنسانٍ مشوه

الملامح، وبلا عينين.. مجرد تجويفين مظلمين يقطران عتمة! تمكنتْ منّي في نهاية المطاف، وأسقطتني أرضاً بجثومها المقيت، وغدتْ تنهش لحمي بأنيابٍ شاذةٍ حادة كأنياب مفترسٍ مستذئب.

انتفضتُ أشهقُ لاهثاً، والعرَق البارد يكسو جسدي كأنني خرجتُ من بئرٍ مالح، لأجد نفسي راقداً فوق سرير غرفتي.. في منزلي الذي تحاشيتُ البيات فيه!

تسمّرتُ في مكاني بذهولٍ صاعق؛ فأنا لا أذكر بتاتاً متى ولا كيف عدتُ إلى هنا! كانت خلايا عقلي ويقيني المطلق يؤكدان بصوتٍ حاسم أنني أغلقتُ باب عيادتي، ومددتُ جسدي المنهك على أريكتها الجلدية. هل قادتني قدماي الخفيتان تحت تأثير غيبوبة السير أثناء النوم إلى ذات البقعة اللعينة التي حذرني ذلك الزائر الغامض من المبيت فيها؟ أم أن ثمة قوةً غاشمة اقتادتني رغماً عن إرادتي إلى هذا الفخ؟

وبينما كنتُ غارقاً في لجة صدمتي وأنفاسي تتلاحق، شعرتُ بكفٍّ دافئة وناعمة تستقر برفقٍ فوق جبيني؛ كانت هي ذاتها اللمسة الحانية والطريقة الأليفة التي دأبتْ أمي على إيقاظي بها في سنوات طفولتي البعيدة.. حين كانت ما زالت تنبض بالحياة!

تداعى تماسكي النفسي واستسلمت دروعي العقلانية تحت وطأة هذا الحنين المسموم، فانفلتتْ مني نأمةٌ خافتة تمتلئ بالتوسل والرجاء : أمي؟ كيف.. كيف ما زلتِ على قيد الحياة؟ !

التفتُّ ببطءٍ يفرضه الهلع، فإذا بجسدها يقف شاهقاً بجوار سريري، يغمرها شحوبٌ مريب. شُلّت حركتي وغارَ صوتي في أعماقي من هول المفاجأة، وعجزت مدارك تفكيري وقدرتي على الاستيعاب عن صياغة

تفسيرٍ واحد لما يدور في حيز الغرفة، فصمتُّ مرغماً تحت سطوة الذهول.

كانت ترتدي عباءةً بيضاء ناصعة يفيض منها سناءٌ غريب. اقتربتْ منّي بخطى وئيدة، وانحنتْ لتقبّلني على جبهتي، ثم رمقتني بابتسامةٍ دافئة عذبة اشتقتُ إليها حتى النخاع. وقبل أن تتراجع، مالت نحو أذني وهمستْ بصوتٍ خافت بالكاد التقطته حواسي الواهنة:

"كنتُ خائفةً من وصول هذا اليوم... لهذا مزّقتُ أغلب صفحاتِ مذكراتي".

أدارت ظهرها وغادرت غرفتي بخطواتٍ صامتة لا صوت لها. انتفضتُ من فراشي ولحقتُ بها كالمسحور؛ كان ضوء ردهة الصالون يتراقص بشكلٍ يثير الارتياب؛ يخفتُ حتى يكاد يتلاشى في عتمةٍ مطلقة، ثم يتوهج فجأة بطريقةٍ هستيرية مريبة.

وفي تلك الأثناء، تناهى إلى مسامعي صوتٌ ينسابُ من الغرفة التي تحوي المكتبة؛ كان صوت أغنية الفنانة وردة، الأغنية ذاتها التي كانت أمي تدمن سماعها في خلواتها: "بودعك".. لكن المفارقة المرعبة أن مسجل الصوت القديم في الصالة كان مطفأً كلياً والغبار يعلو أزراره!

بدأ جسدي يستجيب للمؤثر الماورائي؛ شعرتُ بتنميلٍ حاد يسري في قدمي وصعوداً إلى ساقي، وداهمني دوارٌ ثقيل أجبرني على الارتماء فوق أقرب مقعد، وتزامن ذلك مع صداعٍ حاد أخذ يفتك بصدغيّ. حاولتُ بكل ما أوتيتُ من عزم أن أضغط على نفسي لأقف مجدداً؛ نهضتُ بترنحٍ وصعوبة بالغة، لكنني لم أحتمل التوازن لثانيتين حتى هويتُ ساقطاً على الأرضية الخشبية.

رحتُ أصرخ مستغيثاً بأمي لتعود إليّ، فلم أعد أملك الطاقة الجسدية التي تمكنني من السير خلفها. وبمرور الثواني، بدأ صوت الأغنية يعلو ويعلو بقوةٍ صاخبة، في حين كان صوتي أنا يتلاشى ويختنق في حنجرتي دون أن يخرج. استشرى التنميل في أطرافي كلها، وفقدتُ السيطرة التامة على جسدي المشلول. وتحت وطأة الذعر، بدأتُ أزحف على بطني مستعيناً بأظافري لأصل إلى باب الغرفة التي ولجتْها أمي. وحين بلغتُ العتبة ومددتُ يدي المرتجفة لأدفع الباب.. ساد صمتٌ مطبقٌ ومفاجئ؛ هدوءٌ رهيب وموحش قطع حبل الأغنية.

دفعتُ الباب ببطء، فرأتْ عيناي ما لم يكن ليتصوره عقل بشر أو يستوعبه منطق؛ رأيتُ أمي وعمّتي الراحلتين جالستين، وتتوسطهما تلك الشخصية الغامضة الظاهرة في الصورة.. كان وجهه هذه المرة يبدو محروقاً بالكامل، وملامحه مشوهة وممحوة عن آخرها! إنه أبي.. أبي الذي تآكلت تقاسيمه كأنها ممحية بالأسيد، فكان يقف شاهقاً وينتصب بإصبعه بصرامةٍ نحو زاويةٍ معينة في المكتبة.

وفجأةً، وقعت عيناي عند معصم هذا الرجل المشوّه - الذي لم أعد أشك في أنه والدي المتوفى - فرأيتُ وشم أفعى سوداء يدور حول جلده؛ وشمٌ مريب بدا لي في العتمة كأنه سوارٌ حيّ يلتوي وينبض، ويتأهب للإنقضاض في أية لحظة!

كانوا يجلسون جميعاً حول المائدة يتناولون الطعام في ألفةٍ مريبة. التفتوا نحوي دفعةً واحدة، وبدأوا يوجهون إليّ حديثاً متواصلًا، لكنني كنتُ أرى حركات شفاههم دون أن يصل أي صوت إلى مسامعي، وأنا عاجزٌ تماماً عن النهوض. وفجأة، تحولتْ ملامحهم إلى ضحكٍ هستيري ساخر،

وطفقوا يرشقون جسدي الممدد بصحون الطعام التي كانوا يأكلون منها!

أغمضتُ جفنيّ بقوة، ودموع العجز تملأ وجهي، وقلتُ لنفسي بانهيارٍ تام: لم أعد أحتمل.. لا أريد أن أرى شيئاً بعد الآن!. بكيتُ.. نعم، بكيتُ بحرقة طفلٍ ضائع، وظللتُ أبكي إلى أن...

الصفحات الممزقة

استيقظتُ لاهثاً..

كنتُ ما زلتُ راقداً في عيادتي، فوق الأريكة الجلدية ذاتها. لعل كل ما خُيّل إليّ أنني عشته في منزلي لم يكن سوى امتدادٍ كابوسي لواقعة العنزة المشوهة، أو ربما - وهذا ما أخذ يترسخ كيقينٍ صارم لا يقبل التراجع - كان

حقيقةً ملموسة كخبز الصباح، وجسدي وحده من ارتدّ إلى ملاذه الآمن، تاركاً وعيي معلقاً في ردهات البيت هناك.

تطلعتُ إلى الساعة الجدارية فإذا بعقاربها تشير إلى الثالثة فجراً. نهضتُ على عجل، وانتعَلتُ حذائي ثم غادرتُ العيادة متوجهاً صوب المنزل؛ فقد بات بقائي في مكاني ضرباً من المحال. كنتُ أبصر الشوارع عبر غشاوةٍ ضبابية تكسو عينيّ وأنا أقود السيارة، مع ثقلٍ جاثم يطوق صدري، لكنني عزوتُ الأمر إلى إنهاكي الطبيعي وقلة النوم.

فتحتُ باب الشقة بالمفتاح ودلفتُ إلى الصالون، أغلقتُ الباب خلفي ومددتُ كفي لأدير مفتاح الضوء، بيد أن التيار الكهربائي كان مقطوعاً. أضأتُ كشاف هاتفي، ومشيتُ بخطى حذرة نحو المكتبة الخشبية في الزاوية التي أشار إليها أبي في أطياف رؤياي.

اقتربتُ منها، وقبل أن تلامس أناملي خشبها العتيق، شق سكون العتمة صوت صرير بابٍ يُفتح.. مع أنني كنتُ على يقينٍ تام بأنني أغلقتُ باب الشقة ورائي! وجهتُ حزمة الضوء نحو المدخل برعب، فإذا بالباب مغلقٌ بإحكام كما تركته.

عدتُ وأدنيتُ كفي لأمسك حافة المكتبة، فارتدّ إلى مسامعي ذات الصرير الجاف، لكنه جاء هذه المرّة مقترناً بوقع خطواتٍ وئيدة؛ وللأمانة، لم تكن تلك الأصوات آتيةً من الخارج، بل كانت تنبعث من عمق الشقة.. من ركام الغرف المظلمة حولي.

وللمرّة الثالثة، اقتربتُ ولمستُ خشب المكتبة بعناد، فعادت الأصوات متضافرة، وانبثق معها صوت طفلٍ صغير ينتحب ببكاءٍ مرير! لم ألتفت وراء تلك الغرابة؛ بل شحنتُ قواي وشددتُ طرف الخزانة الخشبية بقوةٍ

لُأزيلها قليلًا عن الجدار.. وهناك، في الفجوة المظلمة الخافية، استقر دفتر مذكراتٍ أحمر محاطاً بالغبار.

التقطته على الفور، وتركتُ البيت بكل ما فيه خارجاً وهرعتُ بفرار المذعور. قدتُ عربتي عائداً إلى مكتبي في العيادة، والدفتر الأحمر يقبع على المقعد المجاور لي كقنبلةٍ موقوتة تنتظر انفجار معرفتها.

حين بسطتُ الدفتر فوق أريكة مكتبي تحت الضوء المباشر، لم أجد ما كنتُ أتمناه وأتوقعه.. فالإرث لم يكن كاملًا.

كانت الصفحات الأولى منه فقط سليمة، مكتوبة بخط أمي الأنيق والمنظم، تروي تفاصيل زواجها من أبي وفرحتها العارمة بحملها بي بعد سنوات من الانتظار.. ثم فجأة، تنقطع السطور في منتصف جملةٍ مبتورة، لتبدأ من بعدها مجزرةٌ من صفحاتٍ ممزقة الحواف؛ بعضها مقصوصٌ بعناية بمقصٍ حاد، وبعضها الآخر يبدو كأن يداً انتزعتْه في لحظة غضبٍ عارم أو ذعرٍ هستيري. كان الحبر باهتاً، ونصف الكلمات تآكل تحت بقع رطوبةٍ قديمة خلّفها الزمن.

رحتُ أستهجئ ما استطعتُ إنقاذه من السطور المتبقية :"...اختفى فريد... الشرطة... جثة في بحيرة بالشمال..." ثم يطبق الفراغ. صفحةٌ كاملة انتُزعت من جذرها، ولم يتبقَ منها سوى شريطٍ ورقي رفيع ملتصف بالتجليد النسيجي للدفتر.

وفي هامش إحدى الصفحات الناجية من التمزيق، وقعت عيناي على كلمةٍ واحدة، جرى تكرارها ثلاث مرات بخطٍ مضطربٍ ومرتجف، كأن كاتبها كان ينتفض رعباً أو يغرق في دموعه :"فمه... فمه... فمه..."

لا سياق يفسّرها، ولا جملة كاملة توضح مرماها، فلا فعل هناك ولا فاعل. كلمةٌ وحيدة معلقة في العدم، محاطة بخربشاتٍ عشوائية مبهمة يصعب فك رموزها، وكأن أمي أرادت تعمية المعنى عمن قد يقع الدفتر في يده قبلي، أو لعلها عجزتْ، من هول الفكرة، عن إتمام جملتها.

أغلقتُ الدفتر الصغير وجسدي يغلي بمزيجٍ خانق من المشاعر: غضبٌ عارم من أمي لأنها بترت الإجابات بيدها قبل أن تهديها إليّ، وتفهّمٌ عميق في الآن ذاته لمدى الرعب الذي طوقها، وفضولٌ محموم يضرم النار في عقلي، مع سؤالٍ واحد يتردد صداه بلا توقف: فمه؟ فم مَن؟ وماذا يخبئ وراء شفتيه؟

لن أحصد الأجوبة بين هذه الأوراق المستهلكة. لا بد لي من العودة إلى بيت عمتي فاطمة، لكن هذه المرة لن أدخل كقريب يبحث عن صورة تذكارية، بل كنبّاش قبور يقتفي أثر نصف حقيقة أخفتها امرأتان مذعورتان في بقعة.. لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها.

حارس البيت القديم

لم أنتظر انبثاق الصباح.. عدتُ في تلك الليلة القاتمة نفسها إلى شقة أم جميل. طرقتُ بابها بعنفٍ وبلا رحمة، غير آبهٍ بانتصاف الليل ولا بحرمة الوقت. فتحتْ لي الباب مذهولةً يرتعد الذعر في عينيها، فبادرتُها باعتذارٍ خاطف، وأخبرتُها بنبرةٍ لاهثة أنني نسيتُ غرضاً مصيرياً في شقة عمّتي

الراحلة، وأنا أعلم تماماً أن مطلبي في مثل هذه الساعة يفوح بالغرابة، لكنني بحاجةٍ إلى المفتاح مجدداً.. الآن ودون أي تأخير.

رمقتني العجوز بنظرةٍ طويلةٍ متفحصة، كأنها تقرأ على تقاسيم وجهي المذعورة سرّاً مخفياً لم تلمحه في زيارتي الأولى. ثم، ودون أن تفتح فاها بكلمةٍ واحدة أو تطرح سؤالًا، مدتْ كفها بالمفتاح، وقالت بنبرةٍ خفيضة حملتْ دفئاً غامضاً: الله معك يا ابني.. حماك الله.

ولجتُ الشقة للمرة الثانية، بيد أن الأرجاء في هذه العتمة بدت لي ممسوخة، كأن جدرانها كانت تتأهب وترقب عودتي. لم أكتفِ بتفتيش غرفة النوم هذه المرّة، بل نبشتُ كل زاوية طمستْها الأيام: خزانة الملابس، أسفل الأسرة، حتى قادتني خطواتي لأقف شاخصاً أمام بابٍ خشبي صغير في نهاية الممر؛ بابٍ كنتُ أحسبه في زيارتي السابقة مجرد خزانة قديمة لتوزيع الكهرباء، فإذ به يفضى بعد دفعه إلى درجٍ حجري ضيق صاعد تؤدي درجاته نحو عليّةٍ خافية.. عليّة كانت عمتي تختزن فيها مؤونتها ومخلفات الماضي.

صعدتُ الدرجات ببطء، ووميض هاتفي يرتجف بين أناملي التي كانت تنتفض رعباً. كانت العليّة تعجُّ ببردٍ قارس لا يشبه صقيع الليل في شيء؛ بردٍ ينبعث من مسام الحجر الأسود نفسه ويخترق العظام.

وفي منتصف الطريق، تسمرتُ في مكاني..

كشف كشاف الهاتف عن ظلٍّ داكن، شاخصٍ في قمة الدرج؛ ظلٍّ لا يتحرك، ولا يتزحزح من موقعه. التفتُّ إلى نفسي وحدثتُها بصوتٍ داخلي صارم، مستدعياً كل ما أملكه من أدواتٍ علمية وتقنياتٍ سيكولوجية:

"نوح.. هذا خوف، والخوف مجرد استجابة كيميائية لا غير، والاضطراب الكيميائي يُهَدَّأ بالتنفس العميق لا بالفرار.. فالزفير الطويل تحديداً ينشّط العصب الحائر(Vagus Nerve) ، ويهدئ استجابة الكَرّ والفرّ، وكأن الجسد يملك زرّ إيقافٍ طارئ لو عرفنا كيف نضغط عليه بالطريقة الصحيحة!"

جررتُ نفساً عميقاً من أنفي، حبسته في صدري لأربع ثوانٍ، ثم أطلقته ببطءٍ شديد من فمي. كررتُ هذه العملية ثلاث مرات، وأنا أصعد الدرجات، درجةً تلو أخرى، بإرادةٍ حديدية.

حين بلغتُ العليّة، أدركتُ أنه لم يكن ظلًا بشرياً كما توهمتُ؛ بل كان كياناً هلامياً، أطول بكثير من قامة الإنسان، يكاد رأسه المشوّه يلامس السقف المنخفض، وتنبعث منه رائحةٌ نفّاذة تشبه الكبريت العفن. لم يتكلم، لكنه غدا يقترب مني بحركةٍ مريبة ومنافية للطبيعة، كأن قدميه الخفيتين لا تطآن الأرض، ورغم خلو وجهه من الأعين، إلا أنني كنتُ أشعر بوطأة تحديقه الحارق يعتصر وجداني.

صرختْ كل خلية في جسدي مستغيثةً بالهرب، لكن ذهن الصدمة أعاد ترتيب دفاعاتي؛ فلئن كانت أمي قد بترت صفحات مذكراتها ورفضت تسليمي مفاتيح الماضي، فسأحارب بكل ما أوتيتُ من عزم لأصل إلى الحقيقة ولن أتراجع!

استجمعتُ شتات شجاعتي، وصرختُ فيه بصوتٍ جهوري لم أعرف كيف انبثق من حنجرتي : أنا لا أخشاك.. لأنني أدرك تماماً ماهيتك! أنت تجسيدٌ لخوفي وقد اتخذ شكلًا مرئياً، وأنا طبيبٌ يجيد تسمية المخاوف وتفكيكها.. لن أغادر هذا المكان قبل أن أحوز على ما جئتُ لأجله.

دنا مني أكثر، وفجأةً انبعث منه صوتٌ جاء مضاعفاً ومتردداً كأن جوقةً من الأصوات الغريبة تتحدث في آنٍ واحد: ما تبحث عنه.. ملكٌ لسيّدي وحده. ارحل!

ثبتُّ قدمي على الأرض الباردة بكل قوّتي، وأجبتُه بصلابة: لن أفعل!

اندفع الكيان نحوي بغتةً كالإعصار، فتراجعتُ خطوةً إلى الوراء غريزياً، فاصطدم جسدي بصندوقٍ خشبي عتيق رُصَّ في زاوية العليّة. هويتُ فوقه بعنف، وفي غمرة الارتباك والسقوط، غبتُ عن الوعي من جديد.

لا أعلم كم مرّ من الوقت لأستعيده، ولكن عندما فتحتُ عيناي، وجدتُ جسدي ممدداً على أريكة الصالون في منزل أم جميل!

"أمك كانت تخشى وصول هذا اليوم، لا تضعني في مأزقٍ مع ضميري يا نوح.. فقد تقدمتُ في الكبر، ونفسي الضعيفة لم تعد تحتمل تعذيب الضمير!"

قالتها أم جميل وهي ترتجف، متراجعةً إلى الخلف كأنها تبصر في عينيّ طيف شؤمٍ حُذِّرت منه لعقود. تجردتُ في تلك اللحظة من كل وقار؛ جثوتُ عند أقدامها على أرضية الصالون الباردة، وامتدت كفاي المرتجفتان لتمسكا بطرف ثوبها في توسلٍ مأساوي، أستحلفها بدموع العجز أن تمنحني خيطاً واحداً، أن تهبني مفتاحاً يُنقذ عقلي من هذا التحلل المتواصل.

كانت العجوز ما تزال تقف كحارسٍ أخيرٍ يقبض على أسرار الماضي الغابرة، تماماً كبيت عمتي المغلق، على خطط الموت والعتمة. انهمرت توسلاتي

وتتابعت أسئلتي كالمحموم، بيد أنني لم أتمكن من استدراجها لصدم إغلاقها، ولا من انتزاع اعترافٍ تفصيلي يروي غليلي.

وفي لحظةٍ ساد فيها صمتٌ ثقيل يقطع الأنفاس، رمقتني بنظرةٍ شاحبة يمتزج فيها الشفق بالشفقة، ثم انحنتْ نحوي قليلًا وهمستْ بنبرةٍ خافية يملؤها الرعب، جملةً واحدة قطعتْ خيط تعقلي كلياً قبل أن تتراجع وتتركني ممدداً، وتغلق باب غرفتها خلفها:

"هناك طلسمٌ مدفون... في فم جثة والدك!"

الطلسم

شقَّ سكونَ العيادة طرقاتٌ متزنةٌ على الباب الخارجي. تطلعتُ إلى ساعتي، كان الوقت مبكراً جداً، قبل موعد وصول السكرتيرة بنحو ساعةٍ ونصف. نهضتُ عن الأريكة الجلدية، ومشيتُ بخطى ثقيلة صوب الباب ثم فتحته.

كان واقفاً هناك، يتطلع في تقاسيم وجهي بنظراتٍ ثابتة لا ترمش. بادلتُه ابتسامةً باهتة رغم الخوف الرهيب الذي كان ينهش أحشائي؛ إذ كنتُ مذعوراً كطفلٍ يواجه المجهول. قلتُ بصوتٍ خنقته العبرة :"صباح الخير.. تفضل."

ولج العيادة بخطواتٍ سريعة وواثقة، تجاوزني ودخل مباشرةً إلى غرفة مكتبي ليجلس على المقعد الوثير. تتبعتُ أثره، ووقفتُ خلف مكتبي أراقبه بحذرٍ وارتياب. ظل ساكناً لا يفتح فاه بكلمة، فبادرتُ إلى كسر جدار الصمت قائلًا بنبرةٍ حازمة: "أظن أنك جئت لتتكلم!"

لكنه لم يُجب.. أطبق على صمته، وبدأ هذا الوجوم يطبق على أنفاسي. رحتُ أتأمل ملامحه، وبينما كانت عيناي تجولان في تفاصيله، وقع نظري على معصمه؛ كان يلتف حوله وشمُ الأفعى السوداء ذاته. ومن دون تفكيرٍ أو مقدمات، سألته: "لماذا حاولت أمي إخفاء الحقيقة؟"

التفت إليّ ورمقني بنظرةٍ هادئة، ثم أجاب عن سؤالي بسؤالٍ آخر: "هل ستمدّ لي يد العون يا بنيّ؟"

فهمت...

أجبتُه ببرودٍ : "قبل أن أمنحك إجابتي، أريد أن أعرف.. من يكون ذلك الكيان الآخر الذي ظل يلاحقني ويبث الرعب في أوصالي؟"

ارتسم الأسف الشديد على ملامحه الشابة، وقال بنبرةٍ خفيضة: "هذا هو "**يحموم**".. الجنيُّ اللعين الذي قُدِّر لي أن أخدمه طوال أربعين سنة. وإن لم تقم أنت بنزع ذلك الطلسم المدفون من بين فكَّي جثتي القابعة في المقبرة، فسيظل يَحموم حابساً لروحي إلى الأبد في برزخه. لكن اصغِ إليّ

جيداً يا نوح، فهذا تفصيلٌ مرعب لم تكن تعرفه أمك ولا عمتك : يَحموم ليس روحاً هامدة أو طيفاً عابراً تنتظر أن تلتقط من فمه قطعة معدنٍ صامتة؛ إنه ملكٌ عتيد من ملوك الجن، حرس قبري طوال أربعين عاماً بيده وبطشه، لا بمجرد أمرٍ أصدره لأعوانه. ولن يُفرّط في أسيري بسهولة.. من يقترب من فم جثتي في تلك اللحظة، سيواجهه يَحموم بنفسه، بجسده الكابوسي، لا بظله ولا بخادمه.. خذ وقتك في التفكير يا بني، فربما يكون هذا آخر حديثٍ يجمعنا إن قررتَ أن تأتي"

قلتُ له والذهول يعصرني: "أخبرني أولًا، أمي كيف كانت تعرف؟ .. من أخبرها القصة؟"

أجابني: أنا لم أفارقك، ولا فارقتُ أمك التي ربّتكِ أحسن تربية. قبل أن تتمّ عامك الثاني بأيامٍ قليلة، ذهبت أمك لزيارة قبري.. هذا اليوم لن تتمكن ذاكرة أحدٍ منّا من محوه أبداً؛ انحنت فوق القبر وهي تتلو سورة الفاتحة، وما إن أتمت تلاوتها حتى رأتني شاخصاً أمامها! اقتربتُ منها وقلت: "أنا لم أمت، إن روحي مختطفة ومحجوزة لخدمة ملكٍ من ملوك الجن، فانتبهي إلى نوح من الآن وحتى عودتي". ومن شدة ذعرها، غابت عن الوعي وسقطت فوق الثرى، ولم تستفق إلا وهي في المستشفى. بقيت سنواتٍ طويلة تعاني من حالةٍ نفسية عصيبة، ولم تشعر بالراحة إلا حين أفضت بما حدث لعمّتك فاطمة. فاجأتها فاطمة حينها؛ إذ هزت رأسها وقالت لها: "أعلم ذلك، فقد زارني فريد أيضاً وأخبرني بكل شيء، وقال إنه سيعود بعد أربعين سنة".

لو رواها لي مريضٌ واحد في عيادتي، لصنّفتها فوراً كهلوسةٍ بصرية وفردية. لكن أن تتشارك امرأتان - لا رابط بينهما سوى القرابة والحزن - التفاصيل المرعبة ذاتها، فهذا هو التعريف الدقيق لما نسميه في الطب

النفسي "الاضطراب الذهاني المشترك" (Folie à Deux) ؛ حيث تنتقل العقيدة الوهمية من شخص إلى آخر عبر قناة من القرب العاطفي الشديد.. أم أن كلتيهما لم تكن واهمة، وكانت تقول الحقيقة القاطعة؟

وتابع: وفي يوم عيد ميلادك الأربعين، عدتُ.. كانت يومها بمفردها في المنزل تعدّ لك الطعام في المطبخ، فدخلتُ ووقفتُ خلفها وقلت: "لقد عدت". تملّكها الرعب مني؛ فقد غدت امرأةً عجوزاً طاعنة في السن، بينما أنا ما زلتُ شاباً في الأربعين من عمري، تماماً كما تركتني أول مرة!.. قلتُ لها بصوتٍ دافئ: "لا تخافي مني، هذا أنا فريد، زوجك وأبو نوح. ولكن، لكي أعود إلى حياتنا بجسدٍ بشري طبيعي، لا بد أن يقوم أحدٌ من دمي بنزع الطلسم المدفون في فم جثتي القابعة في القبر". أخبرتني بأنها لن تقوى على فعل ما أطلبه، فأجبتها بأسى بأنني لن أتمكن من العودة أبداً إن لم تفعل، وستظل روحي معلقةً ومحجوزة هناك معهم.

سكت هذا الزائر الذي تيقنتُ أنه فريد البحري.. والدي الذي طالما حلمتُ برؤيته. وراح جسدي يستجيب لوعيٍ صاعق؛ فهمتُ أخيرًا لماذا بَتَرَتْ أمي نصف الحقيقة بيدها وحرمتني منها طوال تلك السنين. لم تكن تحاول حمايتي من الجهل، بل كانت تدرك أن الحقيقة الكاملة، حين تصدم الوعي دفعةً واحدة، تكسر كبرياء العقل البشري وتذرّره كما تكسرتْ روحها هي. أرادت لي أن أستحق الجواب عبر النبش والبحث، لا أن أنهار تحت وطأته.

ولكن... ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ أرأفُ بفريد وأستعيد والدي، أم أهرب من صقيع الماضي وأتركه محتجزاً في جحيمه؟

المقبرة

استقبلني حارس المقبرة بوجلٍ وريبة، وسألني بنبرةٍ حادة: "ما الذي جاء بك إلى المقابر في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟."

أجبتُه والأعصاب في صدري تكاد تتشظى: "أنا... أنا جئتُ لأتلو الفاتحة على روح أبي الراحل."

رمقني بنظرةٍ ثاقبة ساخرة وقال: "لا تحاول خداعي بمثل هذه الحجج الواهية. أنت لم تأتِ لتقرأ الفاتحة، ولا لزيارة أحد؛ فالقلق المرتسم على تقاسيم وجهك يشي بأنك جئت لتخفي آثار جريمة."!

انتفضتُ مستنكراً: "جريمة؟ عن أي جريمة تتحدث يا رجل؟ أعوذ بالله."!

قاطعني بصرامة وهو يلوح بيده: "كفّ عن هذا الجدال وأوجز؛ قل لي ما الذي تفعله في المدافن عند الساعة الواحدة ليلًا قبل أن أبلغ رجال الشرطة؟ ائتني بالحقائق كاملة وسأمد لك يد العون، شريطة أن... تكرمني بما تجود به نفسك."

أجبتُه بوضوح ودون مواربة: "سأخبرك بالصراحة المطلقة؛ جئتُ لأستخرج طلسمًا مدفونًا في قبر أبي. أما في ما يخص إكرامك، فسترى منّي من الكرم ما يثلج صدرك."

تهللت أساريره، وساعدني على فتح القبر الموصد. ومع أنه قد انقضى أربعون عاماً كاملة على دفن الجثّة، إلا أن المفاجأة الصاعقة كانت أنها ما زالت قائمة وساخنة، ينبعث منها دفء مريب!

تراجع حارس المقبرة خطوة وهو يتأمل الجسد باستغراب شديد، وقال بنبرة مضطربة: "أمر هذه الجثة غريب جداً! لم أكن أعلم أنها دُفنت حديثاً، مع أنني لا أبرح هذا المكان قط."!

ثم رفع بصره نحو السماء فجأة واستطرد بصوت متهدج: "ثمة برد قارس ومفاجئ هبط علينا الآن، لم يكن له أثر قبل دقائق."!

لم أنطق بحرف واحد، فقد كنتُ أستشعر الصقيع ذاته؛ صقيع لاهب لا يشبه برد ليل الشتاء في شيء، بل كان برداً أسود ينبثق من جوف الأرض المفتوحة أمامي.

بدأت رياح هوجاء تعبث بأغصان الأشجار المحيطة بنا بلا سبب ظاهري، ثم تناهى إلى مسامعي، من بين القبور المتراصة خلفنا، صوت حفيف منتظم ومتصاعد، كأن عشرات الأيدي البشرية تتحرك وتنبش تحت التراب في وقت واحد! شحب وجه الحارس وتمقّعت أوداجه، وتراجع خطوات إلى الوراء وهو يتمتم بأنه لم يشهد مثل هذه الأهوال في حياته قط.

نزلتُ إلى جوف القبر المظلم.. كانت رطوبة التراب الباردة تلتصق بجلد كفيّ، ورهبة المكان تضغط على صدري كأن أحجار القبر تعتصر انفاسي.

تأملتُ الجثة القابعة أمامي، وانعقدت في حلقي مرارةٌ أليمة.. طوال أربعين عاماً، لم تجمعني بهذا الرجل مائدةُ غداء، ولا أريكةٌ في مساءٍ دافئ، ولا حتى جدارُ بيتٍ واحد.. كان هذا جوفَ قبرٍ مهجور، لكنه - على بشاعته - كان المكان الأول والوحيد الذي ألتقي فيه بوالدي!

أزحتُ الكفنَ عن الوجه بخوفٍ مشلوب، فتلقتْ عيناي صدمةً ألجمت كياني وجعلت الهواء يهرب من رئتي..

إنه هو.. التقاطيع ذاتها، والملامح الباردة عينها؛ إنه الزائر الغامض الذي يقصد عيادتي! إنه حقاً أبي!

مددتُ يدي المرتجفة نحو فمه لأستخرج الطلسم، وما إن لامست أناملي فكّه حتى شعرتُ بقوة عاتية وغير مرئية تدفع يدي إلى الوراء بعنف لا يطاق، فارتطمت بحافة القبر الحجرية الحادة، وانبثق منها الدم بغزارة.

وعندها شق سكون المدافن ذلك الصوت الجحيمي؛ الصوت ذاته الذي سمعته فوق سطح المبنى، لكنه الآن يملأ أرجاء المقبرة كلها، لا ينبعث من جهة واحدة، بل يتدفق من الأرض والهواء وجذوع الأشجار معاً: "هذا الفم لي يا نوح!.. أربعون عاماً وأنا أحرس أسراره، وتتوهم أنك ستنتزعه مني في ليلة واحدة؟."!

رفعتُ رأسي بذعر، فتبدّت لي أهواله؛ رأيته شاخصاً، لا كظل هلامي هذه المرّة، بل كوجود مادي كامل وكثيف، يتجاوز طوله أعتى شجرة في المكان، بلا شكل ثابت؛ إذ كان يتموج ويتبدل بين هيئة رجل ملتحف بالسواد، وهيئة دخان متفحم تتوسطه عينان تلمعان كجمرتين وهاجتين!

أطلق حارس المقبرة صرخة رعب مدوية، وولى دبره هاربًا دون أن يلتفت وراءه، تاركاً إياي وحيداً في مواجهة يحموم.

في تلك اللحظة، بدأت الرؤى والكوابيس تنهال على وعيي بضراوة؛ رأيتُ أمي تنهار باكتئابها أمامي وتتهمني بملامح باكية بأنني السبب الرئيس في موتها، ورأيتُ عمتي فاطمة تصرخ في وجهي لائمة لأنني نبشتُ سراً كان يجب أن يظل مقبوراً إلى الأبد، ورأيتُ الشيخ عابد يشير إليّ بإصبع الاتهام بأنه لقي حتفه بسببي، ورأيتُ صديقي الطبيب خالد يوقع على تقرير رسمي يقضي بإيداعي مصحّة الأمراض العقلية! كل خوف عشته في طفولتي، وكل وجل كتمته في غياهب نفسي، خرج من داخلي وتجسد أمامي كقذائف فتاكة في لحظة واحدة.

شعرتُ بصدري يضيق حتى كاد يتكسر، وخانتني ركبتاي فهويتا بي، وانطلق صوت خبيث يتردد في رأسي يهمس: "أنت مجنون حقاً يا نوح.. كل هذا محض هلاوس، وأنت تموت الآن وحيداً في مقبرة باردة دون أن يعلم بمكانك أحد."

في تلك الثواني الحرجة، استدعيتُ كل ما أملكه من حصيلة علمية؛ لا كطبيب يشخّص علل الآخرين، بل كرجل يدافع عن آخر خطوط دفاعه النفسي لإنقاذ روحه من التلاشي.

جثوتُ على ركبتيّ، لا استسلاماً للكيان الأسود، بل لأثبّت مركز ثقلي الجسدي، وبدأتُ تطبيق تقنية التنفس المنظم: سحبتُ نفساً عميقاً من أنفي لأربع ثوانٍ، حبسته في صدري لأربع أخرى، ثم زفرته من فمي ببطء شديد طوال ثماني ثوانٍ؛ تماماً كما ألقن مرضاي المذعورين أثناء نوبات الهلع الحادة حين يوقنون بالهلاك.

كررتُ العملية مراراً، وبين كل شهيق وزفير، كنتُ أسمّي الأشياء بمسمياتها الحقيقية بصوت مسموع وأقول بحسم: "هذا رعب سريالي يستخدم ذاكرتي سلاحاً ضدي! أمي ماتت بذبحة صدرية طبيعية، ولم أكن يوماً سبباً في رحيلها. عمتي فاطمة اختارت شقاق السر مع أمي دافعاً للمحبة، لا لتلقي باللوم عليّ. الشيخ عابد اختار مصيره بملء إرادته قبل أن أطرق بابه. وخالد صديق وفيّ، وليس قاضياً يتربص بي. كل ما أراه ليس حقيقة، بل هو أداة يلوح بها كيان يدرك نقاط ضعفي لأنه راقبني طويلًا... وأنا أعلم عيوب نفسي ونقاط ضعفي أكثر منه، لأنني عكفتُ على دراستها طوال حياتي المهنية."!

عندئذٍ، بدأت الرؤى الكابوسية تهتز وتضطرب، لم تختفِ دفعة واحدة، لكنها فقدت تماسكها وبدت كصورة رديئة الالتقاط تتلاشى ملامحها.

استغل يَحموم لحظة تركيزي الذهني، فباغتني بأسلوب آخر؛ لم يلجأ للرؤى هذه المرّة، بل ضربني بالصقيع!.. برد خارق للعظام تغلغل في أطرافي، فشعرتُ بأصابعي تتيبس كالحجر، وتحولت أنفاسي اللاهثة إلى بخار كثيف يتصاعد أمام وجهي رغم أننا في ليلة صيفية لاهبة. وسمعتُ هسيسه يهمس مباشرة في صماخ أذني: "استسلم للنوم.. نم فقط، وسينتهي كل هذا العذاب."

وهنا تحديداً... كانت خطيئته الكبرى التي أودت بسطوته!

فأنا بصفتي طبيباً أعرف هذا الصوت تمام المعرفة؛ إنه صوت الإرهاق القاتل الذي يراود المريض المصاب بانخفاضٍ حاد في حرارة الجسم. بل إن حالات نقص الحرارة القاتلة (Hypothermia) تسجل أحياناً ظاهرةً أغرب تُعرف بـ "التعرّي المتناقض" (Paradoxical Undressing) ؛ حيث يشرع الجسد المحتضر - في لحظاته الأخيرة - في خلع ثيابه واهماً أنه يحترق دفئاً، بينما هو في الحقيقة يتجمد حتى الموت.. تماماً كما كان يحاول يَحموم إقناعي الآن؛ يهمس لي بأن الاستسلام هو الدفء والنجاة، لا الفناء والمحاق!

صرختُ في وجه الصقيع، لا في وجه يحموم: "لن أنام! هذا الجسد الذي يلح عليّ بالرقاد هو جسد كاذب، وأنا أدرك أبعاد الأكذوبة تماماً."!

وضربتُ كفي المصابة بحافة القبر الحجرية عمدًا وبكل قوة، فأيقظني الألم الصاعق كصفعة مدوية، وأعاد الدم إلى التدفق بغزارة في عروقي المتجمدة.

نهضتُ قائماً، واستجمعتُ ما تبقى من قواي المهدورة في يدي السليمة، ومددتُها من جديد نحو فم الجثة، وأنا أرتل بصوت جهوري

مرتفع، لا كتعويذة سحرية، بل كمرساة أثبت بها وعيي في حيز الواقع :
«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد» ....

لم أكن أقرأها لأطرد يَحموم بقوة ماورائية أدّعي امتلاكها، بل لأن صوتي أنا، صياحي وثباتي، كان آخر ما يمكنني التحكم به في تلك البقعة الملعونة، وقد اتخذتُ قراراً صارماً بألا أفرط في هذا التحكم.

كان الفك ما زال محكم الإغلاق كالفولاذ، لكنني في هذه المرّة لم أحاول الجذب بيد مرتجفة وعاجزة، بل بقبضة حاسمة اتخذت قرارها النهائي. شددتُ بكل ما أوتيتُ من عزم، فأطلق «يَحموم» صرخة مرعبة زلزلت الأرض واهتزت لها شواهد القبور من حولي؛ لم تكن صرخة غضب عارم فحسب، بل كانت صرخة ألم ممزق، كأنني كنتُ أنتزع قطعة من أحشائه هو، لا من فم جثة أبي القابعة أمامي!

وانتُزع الطلسم أخيرًا، مقتلعاً من بين الأسنان المتيبسة.

سحبته بقوة وتراجعتُ إلى خارج عتبة القبر وأنا أترنح كالسكران، واستقرّت تلك الورقة المطوية الصغيرة في كفّي.. لم تكن تتجاوز حجمَ نواةِ تَمْرة، لكنها بداخلي كانت تتزن بأطنانٍ من المعدن الثقيل؛ ثقل أربعين عاماً من الخوف الشاخص والرعب المكتوم. لم يكن ما فعلته للتو مجرد استخراج لقطعة دجل مدفونة، بل كان عملية جراحية نفسية دقيقة دون تخدير، استأصلتُ فيها - بيدين جراحتين عاريتين - الجسد الغريب الذي استوطن تاريخ عائلتي، وشطر وعيي إلى نصفين.

أخرجتُ من جيبي علبة ثقاب بأنامل ترتجف تحت تأثير الصدمة والأدرينالين، وأشعلتُ عوداً ثم قذفته نحو الطلسم.

وفور ملامسة النار له، طفق يتصاعد منه دخان أسود كثيف، وبدأت أصوات مريبة تتلاشى في الفضاء شيئاً فشيئاً، كأن جيشاً من الهمسات ينسحب مهزوماً إلى الشتات.

التفتُّ بوجهي، وتطلعتُ بحذر إلى داخل القبر المفتوح...

فكانت المفاجأة الصاعقة التي تجمّد لها وعيي:

كان القبر خاوياً كلياً.. لا أثر فيه لجثة أو كفن!

هذا ما حدث...

« لم أكن أقرأ القرآن لأطرد يَحموم بقوة ماورائية أدعي امتلاكها،

بل لأن صوتي وثباتي كانا آخر ما يمكنني التحكم به في تلك

البقعة الملعونة »

يحموم

FIRASS JUBRANE

هل العلم والدين غريمان؟
"كنتُ أجيب ببساطة: لا.. حتى كتبتُ هذه الرواية، فتبيّن لي أن السؤال نفسه كان مفخخاً. العلم يسأل عن الآلية ليمنحنا تشخيصاً بارداً، والإيمان يسأل عن المعنى ليمنحنا صمتاً تأملياً. والمأساة تبدأ حين نطلب من أحدهما أن يلعب دور الآخر.
سقط د. نوح البحري في هذا الفخ: ظن أن الطب النفسي درعه الحصين، وأن كل خوف خرافة.. حتى انهار منطقه أمام سؤال واحد: من هو الذي يخاف داخلي الآن؟
«يحموم» ليس جنياً في كتب التراث، بل هو الاسم الذي أطلقناه على ذنبٍ رُفض الاعتراف به، وعلى ذكرى دفناها حيّة. أنا لا أدعوك للتسليم بالجن أو نفيه، بل أدعوك لتجربة أشد رعباً: أن تؤمن للحظة واحدة أنك لا تعرف نفسك كما تدّعي."

فراس جبران